١٤١

روايات احلام

لن يأتي الربيع

www.elromancia.com

مرمورية



روايات احلام

www.elbomela.com

لن يأتي الربيع

لا يفهم الوردة إلا وردة... لهذا عملت إيبرل ساوندرز بستانية تزرع الورود وتعطيها حبها وحنانها، لكن غرايغ بوكستر سيد المزرعة يريدها وردة أخرى في مجموعته... وما أسهل أن يقطفها ويستبيح عطرها... وما أسهل أن يرميها بعد ذلك ذابلة كما تعوّد مع غيرها!... لكن لا... فقد أعمى الغرور غرايغ عن رؤية الأشواك التي تحمي بها إيبرل نفسها، وهي أشواك تدمي حتى القلب...

١ ـ حرب مع الورود

خففت إيبرل ساوندرز من سرعة سيارتها الداتسون الصغيرة حين لاحت لها اللوحة الخشبية الحمراء من خلال الضباب الرمادي المتجهم لشتاء شمالي كاليفورنيا، ها قد وصلت إلى المكان الذي تقصده، نظرت إلى الأشجار الكثيفة التي تشكل سياجاً طبيعياً على حافة طريق اسفلتي ثم وجهت سيارتها نحوه وراحت تقود بحذر خوفاً من الحفر الكبيرة المنتشرة على طول الطريق. نظرت إلى ساعتها ووجدت أنها وصلت قبل ربع ساعة من موعدها مع المدعو غرايغ بوكستر.

كانت إيبرل تعلق على هذه الوظيفة أهمية كبيرة، لذلك تركت لنفسها ما يكفي من وقت لتقود سيارتها لعشرين ميلاً من «ساكرمنتو» إلى هذه المزرعة الريفية الصغيرة ذات الفدادين الخمسة على ضفاف «أميركان ريفر» تحت سفوح «السيرا نيفادا»..

وصلت إيبرل بداية المنحنى، حيث تستدير الطريق الداخلية لتوصلها إلى المنزل الذي تقصده، كان تأثيره واضحاً إذ علت وجهها ابتسامة بهجة ساعدت على تخفيف تجهم فمها الجاد. قدّرت أن المنزل مبني منذ ما لا يقل عن خمس وعشرين سنة على يد مهندسٍ معماري مبدعٍ.. كان المنزل بمثابة ملاذٍ جبلي في اتساعه المريح المتعدد المستويات، بخشبه الأحمر الصنوبري وأوراق الأرز الإبرية المتساقطة على سقفه.

تابعت إيبرل قيادة سيارتها نحو الطريق الداخلية الممتدة نحو الباب الأمامي.. واتجهت إلى المكان المخصص لوقوف السيارات إلى يمين المنزل، وأوقفت سيارتها أمام باب مفتوح لكاراج يتسع لثلاثة مواقف، حيث تقف سيارة «لينكولن كونتينتال» بيضاء، وسيارة «بورش» سوداء رشيقة.

خرجت إيبرل من سيارتها، وراحت تمدد ساقيها الطويلتين وتراقب ساعتها في انتظار أن يحين موعدها.

مع أنه كان يوماً متجهماً من أيام كانون الثاني (يناير) ودرجة الحرارة في انخفاض مستمر والمطر ينذر بالتساقط بين لحظة وأخرى، فما من أرض في كاليفورنيا تبدو مهملة كهذه الأراضي.. كانت الشجيرات الشائكة تلتف حول المرج أمام المنزل، وتتشابك بعضها ببعض، وحتى من هذه المسافة كانت تبدو واضحة كثرة الأغصان الميتة بين تلك الخضراء، والتي يجب تقليمها.. وتوقفت عيناها الرماديتان الباردتان الناقدتان على المرجة المهملة التي ارتفع العشب فيها.

لاحظت إيبرل وجود خميلة من الورود الحمراء الكبيرة إلى يسار المنزل. نظرت إلى ساعتها ووجدت أن عليها الانتظار سبع دقائق أخرى.. ثم أعادت النظر إلى المنزل لترى ما إذا كان أحد قد لاحظ وصولها، لكنها لم ترَ أحداً، فاستسلمت لفضولها الذي دفعها نحو المرجة المهملة حيث تنمو تلك الورود.

لم تشاهد أبداً خلال ثلاث سنوات من عملها في الحدائق، ورداً تصل إلى هذه الحالة المزرية.. بدت الشجيرات وكأنها لم تمس منذ سنوات عديدة..

يعمد معظم مزارعي الورود إلى تشذيبها في وقت لا يتجاوز كانون الأول (ديسمبر).. وإذا لم تشذب هذه الورود في أسرع وقت ممكن،

فسيكون وقت تشذيبها قد فات.

تفحصت إيبرل غصناً ثخيناً ينمو في زاوية.. وبالتطلع عن كثب أكثر، رأت أن الغصن محشور ما بين برعمين نابتين، وإذا لم يُجرّ له تقليم قريباً، فقد يموت الغصن كله. على أي حال ليس الأمر من شأنها.. من ناحية أخرى كيف يمكن لأي إنسان أن يعترض على تفحصها لهذه الورود وقيامها بتقليم سريع؟ بالتأكيد ما من أحد لديه غرسة ورد يمكن أن يعتبر عملها هذا تُطفلاً.

نظرت بتردد إلى المنزل، لم تكن مقتنعة بأن ما ستفعله أمر مناسب، لكن أزعجتها رؤية الغصن المكسور، بقدر ما يزعج عظم مكسور ممرضة خبيرة. أخرجت المقص من الحقيبة القماشية التي تستخدمها لحمل معداتها إضافة إلى استعمالها كحقيبة يد. تقدمت لتقوم بعملها غير عابئة بالأشواك التي تغرز في جينزها وسترتها السميكة.. ووجدت أن الغصن في الواقع هو فرع منشق من جذر الوردة، ينمو من تحت جذعها.. فقالت تخاطب نفسها: آسفة لكن يجب أن أجتثك.. ركعت واستندت على مرفقها ثم انحنت كي تتمكن من الوصول إلى جذور النبتة دون التأذي من أشواكها. كانت تفاصيل جسمها بارزة، وكالعادة حين تقوم بعملها، نسيت الوقت والمكان وراحت تنتقل من معالجة غصن إلى آخر، ومن نبتة إلى أخرى.. وكان بمقدورها أن تستمر هكذا ساعات لولا أن صوتاً عميقاً صدر من ورائها فجأة:

ـ هذه الأملاك مشهورة بمناظرها الجميلة.. وإذا استمريت منحنية بهذا الشكل، فسنضطر لوضع سياج مكهرب لمنع الجمهور!

استدارت إيبرل برعب لترى صاحب الصوت. فعلق شعرها الأحمر القاتم في شوكة.. حاولت تخليص شعرها بذعر، فتسبب ذلك بوخز الشوكة في جلدة رأسها، وخدشها لطرف صدغها.. حاولت

مجدداً تخليص نفسها فعلقت ثيابها بالأشواك والأغصان الصلبة من كل صوب.

صاح الرجل الذي أثار ذعرها:

ـ اجمدي يا امرأة! توقفي عن الدوران ودعيني أساعدك.

دخل إليها بسرعة ونزع الأشواك عن ثيابها وشعرها.. ثم أمسكها بيدها وقادها ليوقفها إلى جانبه على المرجة.. وسأل:

ـ هل أنت بخير؟ يا إلهي.. لقد أدمتك الأشواك وجعلت الدماء تسيل.

ارتجفت يد إيبرل اليمنى وهي تحاول نفض شعرها وثيابها، فقالت بارتباك:

ـ أنا على ما يرام.. لم يحدث شيء.

بدا الرجل لإيبرل طويلاً جداً.. وهي الفتاة الطويلة التي اعتادت أن تكون على مستوى العينين مع معظم الرجال.. لكنها الآن، ولكي تنظر إليه، كان عليها أن ترفع رأسها لتلتقي بعينيه.. أم أن السبب وقوفه القريب منها؟ مهما يكن الأمر، فقد كانت نظرتها إليه قصيرة.. وأحست بالتصلب بسبب الذعر والألم اللذين ألحقهما بها.

أخذ الرجل يتفرس بها باهتمام وبمرح، كان يرتدي قميصاً صوفياً باللونين الأسود والأحمر وبنطلون جينز باهت اللون.. كان الحذاء الذي ينتعله مرتفع الساقين. أخرج الرجل منديلاً نظيفاً من جيبه الخلفي، وأمسك فكها بأصابع قوية ليرفع وجهها، بينما تحركت يده الأخرى لتمسح الدم النازف عن صدغها إلى جانب وجهها.. أحست فجأة بحميمية لم تستطع فهمها فاحمرت وحاولت تحرير وجهها من بين يديه. قطبت قليلاً، ثم قالت ببرود:

ـ هذا لا شيء حقاً.. أرجوك لا تزعج نفسك.

ارتد رافعاً يديه في استسلام ساخر.. وقال بصوت مرح:

ـ أرجو المعذرة.. الأمر فقط أنني أشعر بالمسؤولية عن جرحك.

ردت ببرود:

ـ ألا تعتقد أن التسلل من الخلف هكذا يخيف الناس حتى الموت؟

ـ أنا آسف لإخافتك، أما بالنسبة للتسلل فأظن أن البادىء هو أنت.

نسيت إيبرل أنه لم يفترض بها المجيء إلى هنا، لكنها لم تكن تريد أن تزيد من عجرفة هذا الرجل، ففي ظروف عادية، كانت ستعترف بمشاركتها في اللوم إلا أنها الآن، وبدافع مجهول في داخلها وجدت أن أفضل دفاع هو الهجوم.

ـ لم أكن لأفعل هذا لو لم تكن تلك الورود في حالة مزرية. وإذا كانت العناية بهذه الحديقة جزءاً من واجبك هنا.. أستطيع أن أفهم سبب إعلان السيد بوكستر عن حاجته لجنائني جديد.

اتسعت عيناه السوداوان الكثيفتا الرموش بدهشة، وعلت فمه ابتسامة عريضة:

ـ أنت الجنائني؟

دفع رأسه إلى الوراء مع ضحكة قوية، وامتعضت إيبرل من سخريته وأحست باليأس.. لقد اعتادت أن تتلقى ردات فعل مختلفة لانتقائها هذا النوع من الأعمال، لكن الغريب الآن أن ردة الفعل الساخرة هذه آلمتها بصورة أكبر.. كانت تبدو مستخفة بها، تحط من قدرها أكثر من ردات الفعل الغاضبة والمزدرية. وكانت تعرف أنه من السخف أن تنزعج من الاستخفاف لكن بالنسبة لفتاة تفتخر برجاحة عقلها ورزانتها لم يكن الأمر سهلاً.

مع تصاعد الضحكة، لم تستطع تجنب التحديق مشدوهة بخطوط عنقه القوية، وأخذت عيناها تراقبان عرض صدره وكتفيه.. تلاشت ضحكته في النهاية، تاركة بقايا ابتسامة ساخرة على وجهه الوسيم..

هز رأسه فانزلقت خصلة شعر سوداء فوق عينيه، وفي محاولته إرجاعها إلى الخلف، لاحظت أنه لا يمكن أن يكون جنائنياً بهاتين اليدين القويتين المعتنى بهما جيداً، وفكرت بأظافرها المقصوصة غير اللامعة.. يجب حقاً أن تعيد النظر باستخدام القفازات في عملها..

قال أخيراً مجيباً عن سؤالها:

ـ لا.. أنا لا أعمل جنائنياً هنا.. والجنائني الجيد هو فنان جيد، وأنا لا أجرؤ على هذا الادعاء.

وابتسم ابتسامة ساحرة هدأت من مشاعرها المجروحة فردت بابتسامة مماثلة:

ـ غفرت لك كل شيء.

ـ وهذا ما أنا ممتن له.

قالت بلهجة ساخرة:

ـ حسن إذن.. إذا كنت «لا تجرؤ على الادعاء» أنك جنائني.. فما هو عملك هنا؟

هز كتفيه دونما اكتراث:

ـ قليل من هذا وذاك.

ـ خدمات عامة؟

ـ أجل.. هذا بالضبط ما يعبّر عن عملي.

سار بها نحو المنزل.. حين أدركت أنه يتجه إلى الباب الرئيسي توقفت.. وتكونت في فكرها صورة واضحة عن منظرها المرعب وشعرها المشعث.. نظرت إلى ساعتها لتجد أنها تخطت موعدها ببضع دقائق.. لقد حدث الكثير خلال سبع دقائق.. وقالت بتعجل:

ـ لا أريد إبقاء السيد بوكستر منتظراً، لكنني أتساءل إن كان يمكنني ترتيب نفسي قليلاً؟

نظرت إلى يديها الملطختين بالوحل وإلى ركبتيها المبللتين،

وفكرت بالانطباع الذي ستتركه الآن لدى السيد بوكستر.. متسخة، مشعثة، وتنزف دماً. بدا لها فجأة أنه من المهم أن تعطي انطباعاً جيداً بما يكفي لتحظى بالوظيفة.. ربما ما كان عليها أن ترتدي ثياب العمل لهذه المقابلة كما تفعل دائماً.

سألت بصوت قلق:

ـ هل السيد بوكستر رجل رسمي جداً؟

ابتسم لها الرجل الطويل إلى جانبها:

ـ أوه.. أبداً. لماذا تسألين؟

ـ إنه لا يتوقع شخصاً سميناً بتنورة صوفية وكنزة مماثلة.. كما أعتقد؟

ـ ليس بالنسبة لجنائني، لا أحب ذلك.

تنهدت بارتياح:

ـ لا بأس إذن. أنا فتاة عاملة، وانظر إلى عملي بجدية كالرجال تماماً.. ولقد وجدت أن ارتداتي ثياب العمل في لقائي الأول مع رب عمل جديد هو خطوة صحيحة منذ البداية.. أعتقد أنهم بذلك يدركون أنني أريد أن يُنظر إلي كأي جنائني آخر.. بالرغم من كوني أنثى.

أدار رأسه قليلاً عنها، ورفع قبضة يده المسترخية إلى فمه كمن يكبت ضحكة.. مرة أخرى.. لاحظت إيبرل تسليته بشيء من الألم.

ـ أنت لا تتوقعين مني أن أصدق أن ثياب العمل تكفي لإبقاء الرجال بعيدين عنك؟

ابتهجت الأنثى فيها للإطراء، لكن إيبرل العاملة ردّت بلهجة وقورة:

ـ أرباب عملي من الرجال يفهمون أنني جئت إلى حدائقهم لأعمل.. وإذا لم يتمكنوا من فهم هذا فبإمكاني تصحيح الموقف.. إذ بكل بساطة أترك العمل وأجد غيره.

www.elromancia.com

هز رأسه وكأنه يوافق على كلامها.

وصلا إلى الباب الأمامي وانتظرت لكي يقرع الجرس. بدلاً من ذلك، أمسكها بذراعها وأدارها لتواجهه..

مال إلى الأمام لينظر إلى الجرح جيداً.. فتقلصت معدتها لأنفاسه الدافئة على شعرها وخدها.. وقال ممازحاً:

ـ بالطبع يجب أن تنظفي هذا الجرح الذي سببته حربك مع الورود.. سأطلب من السيدة أغريبا أن تهتم بهذا، ولا تقلقي لأمر إبقاء السيد بوكستر منتظراً.. فهو ليس مستعداً لاستقبالك الآن، مثلك تماماً.

ـ أوه؟ لا بد أن هذا ما خرجت لتقوله لي أصلاً، أليس كذلك؟

تجاهل سؤالها: ادخلي الآن.

ولدهشتها، فتح الباب دون قرع الجرس ودخل المنزل. ولم يكن لديها الوقت لتستوعب اتساع الردهة التي بدت كقاعة مليئة بنباتات نصف استوائية تتنعم بالنور البرّاق المنبعث من السقف، لأنها سرعان ما قدمت إلى امرأة متجهمة برزت فجأة من الردهة.

تغيرت تعابير الرجل حين ظهرت المرأة المسنة.. وأصبحت تصرفاته باردة متحفظة، ولهجته فاترة متعجرفة وهو يقول:

ـ هذه الآنسة ساوندرز، سيدة أغريبا.. جاءت من أجل مقابلة العمل لمركز الجنائني.. تعرضت لحادث بسيط كما ترين. خذيها إلى الحمام، وتأكدي أن تحصل على ما تريد.. حين تصبح مستعدة، أوصليها إلى المكتبة.

كوّرت السيدة أغريبا شفتيها في تعبير عن عدم الموافقة وهزت رأسها باقتضاب ثم استدارت على عقبيها بسرعة، بحيث لم يبقَ لدى إيبرل سوى فرصة ضئيلة ألقت فيها نظرة خاطفة من فوق كتفها على الرجل، قبل أن تهرع خلفها إلى حمام صغير أنيق.. وبصمت أعطتها

السيدة أغريبا علبة لصوق بلاستيكية، ومنشفة للوجه. ثم أقفلت الباب وتركت إيبرل تستعد قبل أن توصلها إلى السيد بوكستر.

حاولت إيبرل جاهدة وضع اللصوق فوق الجرح على رأسها لكن ذلك لم ينجح.. ثم لا داع لهذا على أي حال.. رطبت الدم الجاف فوق خدها وهي تفكر بشكلها المريع الذي ظهرت فيه أمام.. لكن.. ما كان اسمه؟ واستاءت لفكرة أنها إن لم تحصل على الوظيفة هنا أو لم تلتق به مجدداً قبل انصرافها من هذا المنزل، فقد لا تعرف اسمه أبداً. ربما تستطيع سؤال السيدة أغريبا.. لكنها لن تضعف نفسها أبداً أمام تلك السيدة! وليس من عادتها أن تنجرف وراء نزوة عاطفية.. لقد قابلته منذ أقل من ربع ساعة، وها هي تهتم لأمره وكأنها تعرفه منذ زمن.

سخيفة! أقرت بصمت ثم راحت تبحث في حقيبتها عن مشطها وراحت تمرره بخشونة في شعرها الأحمر، القاتم المتوسط الطول، ثم جمعت أطرافه إلى الداخل في تسريحة ملتفة كانت على يقين من أنها أفضل ما يناسب وجهها.. ولم تحاول أن تضع أحمر الشفاه، فهي على أي حال جنائنية، وليست عارضة أزياء.. أخذت نفساً عميقاً وفتحت باب الحمام لتجد السيدة أغريبا تقف منتظرة.. وأشارت المرأة لإيبرل أن تلحق بها.

أدخلت إيبرل إلى غرفة بجدار زجاجي، تشرف على شرفة كبيرة من الآجرّ تحتوي على أثاث خارجي من خشب الصنوبر الأحمر. وراءه، رأت بركة ضمن غرفة سباحة ضخمة، ومن خلفها ملعب تنس.. لكن ما جذب نظرها، كان منظراً ساحراً لا يعيقه شيء لنهر «أميركان ريفر» المتدفق بعنف.. واستطاعت إيبرل أن تتخيل منظره الأكثر جمالاً في الليل.

كانت الجدران الباقية للغرفة مغطاة بخزائن من الخشب الأحمر،

أريكة من الجلد بلونٍ عاجي، طاولات من الكروم والزجاج، منضدة كبيرة لماعة من خشب التيك، تغطيها على ما يبدو خرائط معمارية، سجادة ضخمة بلون بني وقور. كانت هناك نماذج لمبانٍ منتشرة هنا وهناك على الرفوف، بعضها مألوف والبعض الآخر غامض لإيبرل، وكانت على وشك إلقاء نظرة قريبة عليها حين أحست بانضمام شخص إليها في الغرفة.

استدارت لتقع عيناها على الرجل الذي قلقت من أن لا تراه مرة أخرى وتهلل قلبها فرحاً، كان قد بدل ملابسه وارتدى بنطلوناً بلون وبر الجمل، وكنزة مثلثة الياقة بلون بني من الصوف الكشمير فوق قميص حريري رمادي اللون مفتوح الياقة.. واستبدل حذاءه الثقيل بحذاء فاخر لماع من جلد«الموكاسان».

نظرت إيبرل إليه بابتسامة دافئة:

ـ كنت أفكر للتو بأننا لم نتعارف حتى، أنا إيبرل ساوندرز.. وأنت..؟

فجأة بدأ كل شيء يتضح لها، فتلاشت الابتسامة عن وجهها وهي تكمل:

ـ لكنك تعرف من أنا.. لقد قدمتني إلى السيدة أغريبا.. ودخلت المنزل دون قرع الجرس.

ابتسم بمكر كما يبتسم صبي صغير ضُبط وهو يقوم بعمل أرعن، ويعرف أن أمه ستؤنبه.

ـ أجل.. أنا غرايغ بوكستر.

أحست إيبرل بأطرافها تتجمد.. وامتزج الخجل مع الغضب من استغفاله لها. لقد أذلها، وسخر منها سراً وعلانية، لقد كانت غبية إذ لم تعرف هويته، فأفضت إليه ببراءة عن ارتباكها وترددها في مسألة ملاءمة ثيابها.. ومما زاد في سخطها أنه كما يبدو اعتبر المسألة

منتهية، إذ راح يتحدث عن المركز الشاغر والواجبات التي يتطلبها.

ـ هناك مساحة كبيرة تحتاج للعناية.. ربما أكبر من عمل شخص واحد.. معك كافة الصلاحيات لاستخدام أية مساعدة مطلوبة..

سمعت الكلمات متقطعة، وهي تقف جامدة تتنازعها مشاعر عنيفة من الحسرة والألم لم تعها منذ سنوات طويلة..

انسابت كلماتها ميتة من بين شفتيها:

ـ كيف استطعت فعل أمر كهذا؟

اختفت الابتسامة اللامبالية عن وجهه، لتحل مكانها نظرة دهشة مصحوبة بحذر بارد.. بعد لحظة من الصمت المطبق، أبعد عينيه عنها وقال بأدب مفاجىء:

ـ أرجو عذرك.. بالطبع كنت مخطئاً في خداعك.. لكنني لم أكن أعرف هويتك في البداية، وحين عرفت كان الوقت قد تأخر.

ـ وكم كان متأخراً؟ متأخراً لاستعادة دور رب العمل الوقور بعدما تصرفت وكأنك ابن شوارع؟

ـ رويدك آنسة ساوندرز، أنت لست دون..

قاطعته بجرأة:

ـ ليس لدي شيء أقوله لك أكثر من هذا سيد بوكستر.

وتحركت نحو الباب لتخرج.

مد يده وأمسك ساعدها بأصابع فولاذية:

ـ توقفي عن هذه المحاكمة الاعتباطية.. مهلك قليلاً إيبرل ساوندرز: أنت المتهمة، الحكم، والمحكمة، كلهم في قالب واحد جميل.. أوه.. ها أنذا مجدداً.. أرتكب جرم التعليق على مظهرك.

حاولت إيبرل سحب ذراعها منه، لكنها لحرجها الشديد، لم تستطع زحزحتها إنشاً واحداً.. وقالت بلهجة أملت أن تكون متكبرة مهينة:

ـ سيد بوكستر.. لا تغتر بنفسك لأنك مجرم.. الواقع أن ملاحظاتك لا دخل لها بما نحن فيه. لو جئت إلى هنا كعارضة أزياء، أو موديل، لكان مظهري مختلفاً.. لكن كجنائنية، لا لزوم لهذا بكل بساطة.. والآن، وكما أخبرتك سابقاً، ليس لدي شيء أكثر أقوله.. لذا أرجوك أبعد يديك عني.

قام بإحكام قبضته عليها كرد على ما قالته، فبدأت تخاف منه..

ثم تكلم بصوت بارد كالجليد:

ـ إن كان ليس لديك ما تقولينه لي، فأنا لدي الكثير لأقوله آنسة ساوندرز.. إضافةً إلى أنني لست معتاداً على أن يقرر مرشح للعمل عندي متى ينتهي لقاؤه بي.

ـ هذا تصرف إقطاعي منك سيد بوكستر.. لكن توقعاتك لا قيمة لها الآن.. فأنا لن أعمل لك ولو كنت سأموت جوعاً.

ـ أنت تقولين الكثير.. لكن بما أنني الأقوى جسدياً فأنا أنوي أن أرغمك على سماع ملاحظاتي.. أولاً، أنت لست بريئة تماماً مما حصل.. ألم تخفي عني هويتك الأصلية بعدم إعلامي أنك امرأة؟ وكيف لي أن أعرف وقد كان خطاب ردك على الإعلان بتوقيع أ.. ساوندرز؟

قالت ببرود:

ـ معظم أرباب العمل لن يقبلوا بمقابلتي لمثل هذا العمل لو علموا مسبقاً أنني امرأة..

في اللحظات التي كان فيها يفكر بردها، حاولت مرة أخرى سحب ذراعها من قبضته وزادت إذلالاً حين لم يبدُ عليه أنه لاحظ جهدها.

ـ أوليس هذا حكماً عاماً وكبيراً؟ ألا يشبه ذات النوع من الأحكام التي استندت عليها لاتهام الاخرين؟

ـ دعني أسألك هذا.. لو عرفت أنني امرأة من خطابي، أكنت

منحتني فرصة لمقابلتك؟

بدا على وجهه الغاضب بعض التردد.. وكان صوته مفكراً وهو يرد:

ـ لست أدري حقاً.. والآن لن نعرف هذا أبداً.. أليس كذلك؟

لامست كلماته وتراً حساساً في أعماقها وأحست بحنان غريب.. هناك الآن أمور كثيرة لن يعرفاها.. ترك ذراعها ببطء وكأنه محبط لعدم نجاح المقابلة، أو ربما كان الإحباط لإيبرل وليس له.. كانت مشاعرها مشوشة دون أن تعلم السبب.. واعتراها إحساس يشبه الحزن لا الغضب. استدارت نحو الباب.. لكنه قال بصوت مغرٍ:

ـ أتسمحين بأن أضيف شيئاً واحداً، آنسة ساوندرز؟

ترددت إيبرل، وتعمدت أن لا تنظر إليه مخافة أن تضعف أمامه فتفقد بذلك احترامها لنفسها ثم هزت رأسها على مضض.

قال بوكستر بهدوء:

ـ أريدك أن تتذكري اعترافي بأن تصرفاتي كانت سيئة وقد طلبت منك العفو.. والآن أطلب منك أن تنسي هذه البداية السيئة.. ربما لا تعلمين أنني اشتريت هذا المنزل مؤخراً.. والمالك القديم هو الذي أهمل الحدائق وتركها للخراب. وكما رأيت إنها بحاجة ماسة لجنائني خبير يعتني بها بإخلاص، وأنا متأكد أنك بهذه الصفات.. بالرغم من أنك أنثى.. ثم، على أي حال، كان هذا ما عزمنا عليه منذ البداية، أليس كذلك؟ أنا كنت أنوي استئجار جنائني، وأنت كنت تبحثين عن عمل.. أرجوك قولي إنك ستبقين بالوظيفة.

اعترفت لنفسها أن كلاهما قد انجرف في هذا بشكل خاطىء.. لا.. لم تكن إيبرل متعصبة لجنسها، لا في حياتها ولا في عملها.. فهي مسرورة أنها امرأة، وتعلمت أن تتسامح مع تعليقات الرجال على أنوثتها المتناقضة مع عملها، والتي تتعرض لها دائماً في البداية لكن ما

www.elromancia.com

فائدة التفكير بكل هذا الآن؟ مع ذلك.. ربما هي مدينة بتفسير ما، إن لم يكن له، فعلى الأقل لاحترامها لنفسها.

أخذت نفساً عميقاً واستدارت لتواجهه.. جعلها الرجاء المنعكس على وجهه تضعف وتملكتها رغبة قوية لإرضائه بالموافقة على طلبه.. حتى أنها فقدت تقريباً كل سيطرتها.. لكن، لا.. لا يجب أن تعرض نفسها للخداع مرة أخرى.. فلا خير يرتجى أبداً من بداية كهذه.

ـ أقدر لك اعتذارك سيد بوكستر.. وأنا كذلك آسفة لأن الأمر لم ينجح بيننا. لكنك جعلتني أشعر أنني بلهاء ولا أعتقد أنك ترغب في استخدام بلهاء.

ارتعد غرابغ بوكستر لكلامها، وتغيرت قسمات وجهه.. استدار عنها بطريقة فهمت أنها دليل صرف.. وتمتم بصوت مشدود بدا وكأنه يعنيه لنفسه وليس لها:

ـ من الواضح جداً أن في الغرفة أبلهاً..

استدارت إيبرل لآخر مرة نحو الباب، لترى السيدة أغريبا تقف في الداخل.. والله وحده يعلم كم أمضت هنا. كانت تحمل بين يديها صينية قهوة، وما يمكن أن يكون «كايك».. إيبرل لم تره واضحاً، فالدموع كانت تغشي عينيها، ما رأته أن تعبير وجه السيدة العابس قد اختفى، ليحل مكانه ابتسامة امتنان و... رضى.

***

٢ ـ «لا» تعني «لا»

استيقظت إيبرل بكسل في الصباح التالي، كانت على استعداد لأن تتخلى عن كل شيء لمجرد البقاء طوال اليوم في السرير.. أحست باكتئاب وملل شديدين.. لكنه يوم الأحد وهو اليوم الذي تقضيه مع ليز ستاتون، ولا يمكن لشيء أن يجعلها تخيب أمل الحبيبة ليز.. رمت الأغطية، وسارت حافية القدمين نحو المطبخ حيث وجدت برنس يجلس بفخامة وسط الطاولة وينتظر فطوره، وتعابير وجهه تشير إلى صبر مكبوت، تمتمت إيبرل وهي تفتح علبة طعام:

ـ عذراً لتأخري في النوم.. يا صاحب المقام الرفيع.

وسكبت له حصته الصباحية.

كان الجوع بادياً على القط الكبير المترهل إذ راح يأكل طعامه بسرعة، وضعت إيبرل القهوة لتغلي وبيضة لتُسلق، ثم دخلت إلى الغرفة الرئيسية في شقتها، وفتحت الستارة الثانية بلون الشوفان التي تغطي الجدار الزجاجي المطل على حديقتها الخلفية.. كانت الشقة في مجمع يحتوي على ست وعشرين وحدة سكنية، بنيت حول مساحة مشتركة في الوسط مع فسحة وبركة سباحة صغيرة.. خلف كل وحدة سكنية يوجد حديقة صغيرة ليستخدمها المستأجر كيفما يشاء.. وبسبب صغر المساحة استخدمت إيبرل حديقتها على الطريقة اليابانية.. بشكل بسيط وأنيق.

www.elromancia.com

كانت إيبرل تفتقد إيان كثيراً وتتمنى لو أنه هنا ليرى الحديقة تتطور، بعد أن ساعدها في تصميمها منذ ثلاث سنوات.. إيان هيوشو جناثني خالتها مارغريت ومرشدها المحب في طفولتها. كانت في سن السادسة حين أصبحت يتيمة، فقد مات والداها في الحريق الذي نشب في فندق في فرنسا عندما كانا يمضيان عطلتهما، وهكذا عاشت مع شقيقة أمها.. وكانت الخالة مارغريت لطيفة. لكنها كانت أيضاً امرأة اجتماعية نشيطة لا تهتم بتكوين أسرة وحياة عائلة بقدر اهتمامها بمجالس وجمعيات ساكرامنتو، والتنظيمات الثقافية.. وهكذا، ألقت مسؤولية تربية الفتاة على عاتق مدبرات المنزل اللواتي جئن وذهبن حسب نزوات الخالة ونوبات غضبها.. الوحيد الذي بقي دائماً في حياة إيبرل كان إيان هيوشو، وأمضت معه معظم أوقاتها حين لم تكن في المدرسة، وأفضت إليه بكل المشاكل الطفولية التي يفضي بها معظم الأولاد إلى أمهاتهم.. واحتفاظ إيان بوظيفته لا يعني بأنه لم يتعرض لطرد متكرر كسائر مدبرات المنزل.. لكن حين كانت الخالة تطرده في فورة غضب كان يقوم بانحناءة صامتة أمامها ثم يعود إلى عمله وكأنها لم تتكلم.. وفي الساعات التالية، كانت تتظاهر وكأن شيئاً لم يحدث.. فحديقتها كانت مهمة لها وتعرف أن أيان لا يمكن استبداله.

في طفولتها، اعتقدت إيبرل أن خالتها تهتم بالحديقة لأنها تحب الورود والنباتات. وكانت رغبتها أن ترضي خالتها بمشاركتها في هذا الحب إضافة إلى تأثير إيان عليها، وهذا ما طوّر حبها وموهبتها لفن ومهارة العناية بالحدائق.. وعندما بلغت السابعة عشرة وقاربت التخرج من المدرسة الثانوية، كانت قد اتخذت قرارها.. أرادت أن تعمل في التصميم والعناية بالحدائق. لقد أصبحت في سن الرابعة والعشرين ولا تزال ذكرى ضحكة الخالة مارغريت، حين سماعها

بقرارها، تتردد في أذنيها. كانت تشعر مجدداً بسريان الألم والإذلال في أوصالها.. وتذكرت قول الخالة لها: «لطالما كنت فتاة غريبة إيبرل.. لكن لهذا حدود! لمن الجنون لأي فتاة أن تفكر بعمل من هذا النوع، فكيف إذا كانت فتاة لها عائلة مثلك، هذا غير وارد أبداً.. كم أنت سخيفة! أتظنين أنني منحتك سنوات من التربية والعناية كي تفني حياتك في خدمة الناس؟ أن تصبحي يداً عاملة عادية؟ هذا مستحيل! لقد خططت كي تلتحقي بكلية لدراسة اللغة والتاريخ.. وبعد تخرجك يمكنك العمل في دار للنشر، أو في متحف، إلى أن تتزوجي».

لا تنكر إيبرل أن رغبتها في الزواج وتأسيس عائلة هو أمر تطمح إليه كثيراً لكن بما أن خالتها انشغلت كثيراً عنها فقد اعتقدت أنها شخص غير محبوب ولن تثير إعجاب أي رجل.. وأنها، مثل خالتها، لن تتزوج أبداً.. لذلك آلمتها ردة فعل خالتها على قرار عملها، ولكنها كانت تشعر بروابط الالتزام نحوها وعدم نكران جميلها، فآثرت أن تعمل كما خططت خالتها وأطاعتها لكن إلى درجة ما.

أخذت إيبرل كل مقررات علم النبات التي كانت تؤمنها الكلية، إضافة إلى المقررات التي تبحث تصميم المناظر الطبيعية. وكانت تتراسل بانتظام مع إيان الذي أعطاها بالمراسلة الكثير من المعلومات التي تختص بالعمل الذي تحبه، والذي لا تزال مصممة على القيام به في يوم ما. حين كبرت إيبرل، قامت الخالة مارغريت ببيع منزلها في ساكرمنتو وسافرت للعيش في باريس، تاركة إيبرل دون بيت يأويها.. بقي إيان في خدمة المالكين الجدد، وعندما تخرجت إيبرل لم تجد سوى إيان ملاذاً لها ورفضت دعوة خالتها الفاترة للانضمام إليها في شقتها الأنيقة في فرنسا.

ساعدها إيان كي تجد الشقة التي تسكنها الآن، واتفق لها مع الإدارة أن تدفع نصف الإيجار مقابل عنايتها بالحدائق.. عملت إيبرل

في الحدائق لستتين تحت إشراف إيان، وسرعان ما أصبحت تجني ما يكفي من مال، وراحت توفر ما تستطيع لكي تلتحق بالكلية وتحصل على درجة في علم الأرض وهندستها، وربما تنشيء شركة تصميم وعناية بالحدائق.

لكن الأيام الجميلة انتهت بسرعة، إذ تعرض إيان لنوبة قلبية أفقدته حياته، كان ذلك منذ أكثر من سنة.. وحزنت إيبرل عليه وعلى نفسها.. فهي الآن وحيدة، ليس لديها قريب.. وجدت أنها دون دعم إيان العاطفي وتشجيعه ستخسر الكثير من طموحها.. ولكم تمنت أن تجد مركزاً كرئيسة للجنائنيين في مزرعة ريفية، لتجعل من تلك الأرض عائلتها، عالمها، وملاذها في الحياة، كما جعل إيان من عزبة الخالة ملاذاً له.

جلست دون شهية أمام فطورها، وراحت تتذكر كلمات الإعلان الذي أجابت عليه، والذي قادها إلى مقابلة الأمس: «مطلوب جنائني خبير، للعناية والإشراف على خمسة فدادين من الأملاك الريفية قرب التلال.. الراتب قابل للمفاوضة.. مع توفير سكن خاص.. مطلوب رسائل تعريف.. الرد على صندوق بريده».

بالنسبة لإيبرل، بدا الإعلان استجابة لصلواتها. واستأذنت عدداً من زبائنها لتسجيل أسماءهم كمعرّفين عنها، مع رسالة الطلب، والتعريف عن الذات، التي أرسلتها في اليوم التالي.. يوم الجمعة، تلقت مكالمة من سكرتيرة السيد بوكستر، التي حددت لها موعداً وأعطتها التعليمات للوصول إلى المزرعة، والباقي.. معروف.

كانت تعلم أن عرض العمل هذا جيد بالنسبة لها، كذلك لغرابغ بوكستر.. لو أنها فقط لم تنجذب إليه.. لاستطاعت حين استغفلها أن تضحك للأمر كما فعل هو.. على أي حال، من لا مشاعر لنا نحوه، لا يملك سلطة على إيذائنا.. لو أنها لم تكشف هذا له لكانت على الأقل

أنقذت ماء وجهها.. لكن وقد حصل ما حصل فقد جعلته يفهم من غضبها أنها انجذبت إليه.. وبكل تأكيد، لو فكر بالأمر قليلاً، لأدرك أنه وضع حرج بالنسبة لعلاقة رب العمل بالموظف، فهي لن تستطيع استعادة احترامها أو الحفاظ على استقلالها في مثل هذه الظروف. إضافة إلى هذا، سيكون من المؤلم جداً أن تلتقيه كل يوم، وهي تعرف أن رجلاً مثله لن ينظر إليها سوى نظرته إلى موظف سخيف قليلاً.. فهو يظنها الآن غبية كما تثبت آخر كلماته لها.

قالت بصوت أجش: «حسناً.. كفاني أحلاماً فارغة» وبدأت بتنظيف صحون الفطور.. الوقت يقترب من منتصف النهار وقد حان موعد ذهابها إلى ليز لزيارة بعد ظهر يوم الأحد. أخرجت «برنس» إلى الخارج ليقوم بجولته الصباحية المعتادة، وذهبت إلى الحمام لتغتسل وترتدي ثيابها.. لقد وعدت بأن تصطحبها في زيارة إلى قلعة «ساتر» اليوم، وهي مكان مفضل للفتاة الصغيرة.. لكنه يوم بارد، وأملت إيبرل أن تتمكن من إقناع الطفلة بالبقاء في المنزل وقضاء الوقت في لعب الورق ومشاهدة التلفزيون وخبز البسكويت.. هكذا ارتدت ملابسها وقامت بتشغيل آلة الرد في هاتفها، ثم وضعت معطفها فوق كتفيها وخرجت من الباب.

كانت ليز ستانون تعيش في ضاحية قديمة من ساكرامنتو، ليس بعيداً عن شقة إيبرل لكنه عالم مختلف تماماً.. يعيش ماكس وفاين ايفنز، والدا ليز بالتبني، في كوخ في منطقة نادراً ما تصلها أشعة الشمس.

ما كادت إيبرل توقف السيارة أمام باب المنزل، حتى انفتح الباب وخرجت ليز ترقص فرحاً حافية القدمين ودون معطف، إلى الشرفة الأمامية تلوّح لإيبرل، وابتسامة مشرقة على وجهها الصغير.

- إيبرل.. إيبرل.. أنا تقريباً جاهزة! فاين طلبت أن تدخلي.

دخلت إيبرل غرفة الجلوس الصغيرة بأثاثها القديم ورائحة الطهي الطيبة التي تملأ الأرجاء، حيث استقبلها ماكس إيفنز بعناق حميم وفاين بثرثرة متوترة حين لمحت الخدش الطويل على خد إيبرل:

ـ أنت لا تعتنين أبداً بنفسك! وجه جميل كهذا ويدين.. انظري كيف تسيئين العناية بهما!

قال ماكس مؤنباً:

ـ دعيها وشأنها يا امرأة.. ماذا تتوقعين من شخص يقوم بعمل جنائني؟ جهزي الطفلة، لا يمكن لإيبرل أن تنتظر هنا إلى الأبد.

رفعت فاين يديها استسلاماً، وركزت اهتمامها على إلباس ليز حذاءها، وأخذت تؤنب الصغيرة بصوتها الحاد والمرتفع:

ـ كان يجب أن تكوني جاهزة ومنتظرة منذ زمن، بدلاً من تجربة كل قطعة ثياب في خزانتك.

قال ماكس بخشونة لا معنى لها:

ـ اصمتي يا امرأة.. قبل أن تصيبينا جميعاً بالصمم.

كان الزوجان إيفنز في أواسط الستينات، كلاهما ضخم الجثة، وذوا شعر رمادي.. وهما متزوجان منذ أمد بعيد حتى أنهما أصبحا متشابهين في الذوق والطباع. وبسبب إخلاصهما لبعضهما، وخبرتهما في تربية العديد من الأولاد، اختيرا خصيصاً لتربية ليز.. ولقد كان خياراً جيداً إذ لا أحد يصدق أن هذه الفتاة المشرقة المبتسمة لدى أسرة إيفنز، هي ذاتها تلك الفتاة الرثة المتسخة التي جاءت منذ سنة.

بعد بضعة أسابيع من وفاة إيان، قرأت إيبرل نداء إنسانياً من جمعية اسمها «أصدقاء الطفولة» تعنى بالأطفال المشردين، وتؤمن لهم أمر الإقامة مع أشخاص لا يوفرون المكان لهم فحسب، بل الوقت والحب أيضاً.. وذهبت إيبرل إلى هناك في يوم ممطر بارد كهذا اليوم، وتمعنت في الصور وقرأت تاريخ كل واحد بدوره، إلى أن أحست أن

قلبها يكاد ينفطر.. ولأجل ذكرى إيان هيوشو، اختارت ليز ستاتون لتصادقها، فهي بالإضافة إلى وضعها الأسري الرهيب، كانت طفلة هادئة تحب المنزل، ضعيفة، غير جذابة، بحيث خشيت إيبرل أن لا يختارها أحد.

بينما كانت فاين تلبس ليز معطفها، قال ماكس لإيبرل همساً:

ـ جاء مات ليزورنا منذ أيام.. وقال إنه يرى أن الفتاة تتحسن بشكل ممتاز.. لم يراودها أي كابوس منذ شهر كامل.

مات مورهيد هو المصلح الاجتماعي الذي رتب أمر تبني ليز.. وردت عليه إيبرل:

ـ الشكر لك ولفاين، ماكس.. قليل من الناس يستطيعون القيام بمثل هذا العطاء، كما فعلتما.

ابتسم لها بمحبة:

ـ هيا الآن.. لقد فعلت ما هو أكثر.

هزت رأسها:

ـ لا.. أنتما من وفّر لها الغذاء، وأنا لم أقدم سوى اهتمام خاص مرة في الأسبوع.

ـ حسناً.. فليكن كما تشائين.. لكن العمل لم ينته بعد، فتاتنا أمامها طريق طويل.. وهذا ما يؤرقني أغلب الليالي، ولا أستطيع الإفضاء به للمرأة العجوز.. فتاتنا الآن في السابعة، فماذا سيحل بها حين نشيخ أكثر ولا يصبح باستطاعتنا العناية بها.. أو حين حدوث الأسوأ..

وترك الجملة عالقة..

قالت إيبرل بعناد:

ـ اسمع ماكس.. لا يجب أن تقلق على هذا.. أنت تعرف أنني ومات سنعتني بها.

www.elromancia.com

ـ هذا ما يقلقني إيبرل.. لقد مرت طفلتنا بمآسٍ كثيرة في سنواتها السبع بما يكفي لتحطيم رجل.. ولا أظنها ستتحمل مرة أخرى.

لم يعد هناك وقت لحوار منفرد، فقد جهزت ليز أخيراً، وأخذتها إيبرل من يدها بمرح، ثم تبادلوا القبلات والتوديع جميعاً وتوجهت الفتاتان نحو السيارة الصغيرة الصفراء وسرعان ما انطلقتا.

سألت إيبرل:

ـ لماذا كنت تجربين كل ملابسك حبيبتي؟ هل وجدت صعوبة في إيجاد ما يناسبك؟

كانت إيبرل تتنبه دائماً لمثل هذه الأمور، فالراتب الذي يتقاضاه العجوزان من الوكالة لأجل ليز لا يكفي أبداً لتأمين احتياجات الفتاة التي تزداد نمواً يوماً بعد يوم.. وليس لديهما سوى دخل محدود من راتب ماكس التقاعدي ومن الضمان الاجتماعي.

ردت ليز بصوتها الواضح:

ـ أوه.. لا.. كنت ألهو فقط.

اغتنمت إيبرل الفرصة لتقول:

ـ بما أن الطقس سيء اليوم.. أترغبين بالذهاب إلى منزلي بدلاً من «القلعة»؟ نستطيع أن نلعب ما نشاء ونصنع البسكويت.. ونؤجل رحلتنا إلى يوم مشمس. وربما نأخذ معنا طعاماً أيضاً.

أدارت ليز وجهها بثقة نحو إيبرل:

ـ لا أهتم بالمكان الذي نذهب إليه طالما أنا معك إيبرل.

تفاءلت إيبرل وردت بحب:

ـ وأنا كذلك حبيبتي.

حين وصلتا باب الشقة وجدتا «برنس» مبللاً وجالساً أمام الباب، كان يلف ذنبه حول قائمتيه الأماميتين.. انحنت ليز لتحمله ودخلت به إلى المنزل وهي تقول:

ـ سأكون أنا الأم و «برنس» الطفل.. وأنت ماذا ستكونين إيبرل؟

ليست المرة الأولى التي تلاحظ فيها إيبرل أن ليز لا تعطي أهمية لدور الأب في حياتها، وهذا أمر مفهوم.. وفكرت أنه من الأفضل تجنب لعبة العائلة، واقترحت تمثيل أدوار السيرك، الأمر الذي لاقى موافقة متحمسة من الطفلة.

هكذا اختارت إيبرل دور المهرج.. ورسمت بأحمر الشفاه دوائر كبيرة على كل خد وعلى مقدمة أنفها. ولونت جبينها بطلاء الأحذية السائل.. ولأنها لم تجد شيئاً ترسم به نصف الهلال الأبيض حول فمها، استبدلته بفم ليلكي، مستخدمة أنبوباً كاملاً من ظلال العيون..

تحولت ليز إلى بهلوانية باستخدام بلوزة بيضاء ضيقة لإيبرل، وإن كانت واسعة قليلاً وطلبت أن تضع بنفسها الماكياج.. ولم تشاهد إيبرل يوماً بهرجة توضع على وجه بمثل هذا الإسراف.

فرحت الفتاتان كثيراً بلعب دوري المهرج والبهلوان، وأخيراً جاء دور تحضير الحلوى وهذا ما كان ينتظره برنس الذي كان طيلة الوقت الفائت مغمض العينين، لكن الآن، الأمر بات يعنيه كثيراً، فانتقل إلى مركزه المعروف في وسط طاولة الطعام مستمتعاً بانتهاء أوقات الجنون والانتقال إلى ما هو أكثر تسلية وإفادة، إعداد البسكويت بالشوكولا، الحلوى المفضلة لديه.

كانت إيبرل تضع أول صينية عجين في الفرن، بينما ليز تقف فوق كرسي لتتمكن من سكب المزيد من العجين في صوانٍ أخرى، وفجأة قرع جرس الباب. كانت إيبرل تهم بالذهاب حين قفزت ليز من مكانها وخرجت من المطبخ وهي تركض.. ولحقتها إيبرل.. حين وصلت غرفة الجلوس، وقفت مسمّرة لرؤية غرايغ بوكستر يسد الباب ويتحدث إلى الطفلة التي رمت برأسها إلى الوراء لتنظر إليه.

همست إيبرل: أوه.. لا.

www.elromancia.com

مع إدراكها للمنظر المحرج الذي تبدو فيه، خرجت آهة خفيفة من بين شفتيها الليلكيتين، وبوضوح مخيف، لمحت عينيه البنيتين الدافئتين تنفتحان واسعتين وفمه يلتوي ثم تعلوه ابتسامة هادئة.. وقفت ليز تنقل نظراتها من أحدهما إلى الآخر، ثم ركضت لتلف ذراعيها حول ساقي إيبرل، ونظرت إليها بتقطيبة صغيرة على وجهها.. وهمست:

ـ من هذا الرجل إيبرل؟

انحنت إيبرل تلف ذراعها حول الفتاة وتطمئنها:

ـ لا بأس عزيزتي.. إنه رجل أعرفه. لماذا لا تعودين لإكمال وضع البسكويت في الصينية؟ لا تفتحي الفرن بنفسك.. أتسمعين؟

بهزة رأس صغيرة ونظرة شك للغريب الضخم، عادت ليز راكضة إلى المطبخ.

في رغبة منها لأن تصرف النظر عن مظهرها السخيف جمعت إيبرل كل شجاعتها، وقالت بلهجة باردة مهذبة:

ـ لدي انطباع بأن ما من شيء آخر نقوله لبعضنا.. كان يجدر بك أن تتصل هاتفياً لترى ما إذا كانت زيارتك مناسبة.. لكن من الواضح أن مشاعر الناس ليست في لائحة أولوياتك، أليس كذلك؟

أخفض عينيه وكأنه أحرج من هجومها:

ـ أنا آسف آنسة ساوندرز، إنني مدين لك باعتذار آخر.. لكن الواقع أنني اتصلت، وتركت رسالة على آلة الرد الهاتفية.

ـ أوه..

ونظرت نحو الهاتف مقطبة، وكأنه تآمر ضدها.. فأكمل:

ـ هل أسمعك الرسالة الآن؟ أم تفضلين سماعها بنفسك لتتأكدي من قولي الحقيقة.. أعرف أنك لا تثقين بصدقي.

اعترفت إيبرل بصوت محبط:

ـ لا تكن سخيفاً.. أنا لم أتهمك بالكذب.. كنت أنوي الاستماع إلى الرسائل في المساء.. بعد أن أعيد ليز إلى منزلها.

قال باهتمام:

ـ أوه.. الصغيرة إذن ليست لك؟

صاحت: بالطبع لا.

رفع باستغراب حاجباً أسوداً ناعماً وتساءل:

ـ ولماذا.. «بالطبع لا»؟ يخيل لي بأنك ستكونين أماً رائعة. لا أذكر متى رأيت صورة حقيقية للحياة البيتية السعيدة كالتي أريتني إياها اليوم.. لعب أدوار السبرك، تحضير البسكويت، منزل دافىء حميم في يوم بارد ممطر..

امتلأت بالغضب لإحساسها بأنه يسخر منها، فهزت كتفيها وقاطعته بصوت متعالٍ:

ـ أنا لم أرك شيئاً سيد بوكستر.. لقد تطفلت على بيت لم تدع إليه.. أرجوك قل ما جئت لأجله ثم ارحل.

استطاعت أن تدرك من خلال النظرة التي استقرت في عينيه وتعابير وجهه المتجهمة أن كلماتها أصابته في الصميم وأنها حققت انتقاماً لعدم اكتراثه بمشاعر الآخرين. حين تكلم، كان صوته بارداً كالصوت ذاته الذي يكلم فيه السيدة أغريبا.

ـ جئت أسألك إذا كان بإمكانك إعادة التفكير والقبول بالعمل كرئيسة للجنائنيين في أملاكي.. لكنني أرى الآن أنك لن تفعلي.. لذلك سأغير طلبي وأسألك ما إذا كنت مستعدة فقط للعناية بالورود.. لقد أعطيتني الانطباع بأنها تحتاج إلى العناية فوراً.. على أي حال لقد بدأت بهذا.. أليس كذلك؟

نظرت إليه بتفرس لترى إن كان يسخر منها مجدداً.. لكنها لم تجد ملامح السخرية بادية على وجهه ولا أثراً للدفء في عينيه

السوداوين . . فقالت بتصلب :

ـ لا سيد بوكستر . . أنا لا أهتم أبداً بالعمل لديك سواءً أكان الأمر دائماً أم مؤقتاً .

هز كتفيه العريضتين دون اكتراث ، وهز رأسه وكأنه كان يتوقع ردها . . استدار نحو الباب رافعاً معطفه الواقي من المطر إلى عنقه ، ولاحظت إيبرل أنه أفسد تسريحة بضع خصلات من شعره الأسود . . قال بابتسامة ساخرة :

ـ رد أنثوي مثالي . . لكنه غريب إن صدر عن لسان جنائنية تنظر إلى عملها بجدية .

ـ ماذا تعني بهذا بالضبط؟

ـ تميل النساء دائماً إلى ردات فعل هستيرية حول أمور تافهة إنهن يفكرن بعاطفتهن بدلاً من عقولهن! كم من الرجال برأيك يمكن أن يغضبوا لأمر تافه مثل . . سوء التفاهم البسيط الذي حدث بيننا يوم أمس؟

لعنت إيبرل نفسها بغضب لظنها أنها كانت فظة معه أكثر من اللزوم . . تصوروا الجرأة والوقاحة! حاولت أن تفتح فمها لترد عليه ولكنها أحست أنه ينتظر متربصاً بها ، وكأن في الأمر تسلية له ، فقالت لنفسها : مهلك . . لقد استغفلت نفسك بما يكفي . . ولن أسمح بإظهار نوع آخر من «الهستيريا» حول «أمر تافه» كما يدعي . . فابتسمت بخفة :

ـ لا أعتقد أنك محق سيد بوكستر . . أنا واثقة أن قليلاً من الرجال سيتصرفون مثلك . . ففي البداية «سوء التفاهم» حول هويتك الصحيحة ما كان ليحدث ، لأنك لو أبديت تلك الملاحظة «الظريفة» حول . . وقتئذ . . لرجل ، لتكفل بإيقافك أسبوعاً كاملاً دون وعي .

بسرعة كبيرة ، انقلبت تعابير وجهه إلى المتعة والمرح . . ورغماً عنها ، أحست إيبرل بالبهجة لسماع ضحكته القوية . . وقال بإعجاب :

ـ أنت قوة يحسب حسابها آنسة ساوندرز . . لقد كسبت نقطة .

ـ إيبرل؟

سمعت صوت الصغيرة الضعيف ، فاستدارت لترى ليز تتكلم من وراء زاوية المطبخ .

ـ لقد انطلق جرس ساعة التوقيت في الفرن .

ـ سأكون معك فوراً عزيزتي .

ثم استدارت إلى الرجل المبتسم :

ـ حسناً . . إذا كان هذا كل شيء .

أشار إلى المطبخ :

ـ لا تدعي البسكويت يحترق . . سأنتظر إن لم يكن من إزعاج في هذا؟

وقفت لحظة مترددة بين ذهابها إلى ليز والسماح له بالبقاء في شقتها ، ثم استدارت واتجهت نحو المطبخ . . غسلت وجهها ومسحته بمنديل ورقي . . ثم تنهدت :

ـ أوه . . الأمر ميؤوس منه!

نقلت البسكويت بسرعة من الفرن إلى رف المغسل ، بينما ليز تدور حولها وتقف في طريقها ، وهي تضع الصينية الثانية :

ـ إبقي هنا صغيرتي ، وانتظري ساعة التوقيت مجدداً . . سأعود بسرعة .

عادت إلى غرفة الجلوس وأحست بداخلها أنها مسرورة ، لقد التقيا منذ دقائق فقط وهاهما غاضبان بمرارة من بعضهما . . وهذا يدل على . . لكن لا شيء تغير حقاً . سيخرج الآن وستكون النهاية بينهما . وجدته يقف قرب النافذة ينظر إلى الخارج مراقباً حديقتها الخلفية . . قال :

ـ يا لها من حديقة رائعة ساحرة . . هل عملت عليها؟ أم أنها مع

الشقة؟

ـ لا . . إنها من تصميمي بمساعدة صديق.

كانت الحديقة في غاية الجمال والذوق، شجيرات ثلاثة من صنوبر «الموغو» المشذبة بذوق وفن تحتل الزاوية اليسرى منها، مع صخور صغيرة رمادية في الجانب الآخر. . باقات من النرجس البري تزهر ببهجة. . مساحة مغطاة بالعشب الأخضر، بالإضافة إلى أشجار الكاميليا اللماعة العابقة بورود زهرية اللون.

قال غرايغ وهو ينظر إليها مفكراً:

ـ أنت فعلاً فنانة. .

ابتسمت بتواضع، وتمتمت:

ـ لطف منك قول هذا. .

هز رأسه قليلاً وكأنه يعود إلى الحاضر، ثم استدار عن النافذة:

ـ حسناً. . لقد أخذت الكثير من وقتك.

اتجه نحو الباب وهمّ بفتحه، لكنه لم يفعل، استدار نحوها مجدداً وبدت ابتسامة ساحرة على شفتيه، ثم قال:

ـ أعتقد أنني قادر بنفسي على الاعتناء بتلك الورود. . ألا تعتقدين؟ إنها مسألة تشذيب قدم أو ما يقارب من ارتفاعها. . أليس كذلك؟

ارتعدت لمنظر القطع الذي سيقوم به، فصاحت:

ـ لا تجرؤ أن تفعل هذا!

ثم تذكرت أنها وروده ولا تخصها. . فتراجعت:

ـ أعني. . أعتقد أن عملك هذا سيضرّها أكثر من تركها كما هي. . ألا يمكنك استخدام شخص آخر لهذه المهمة؟

قال:

ـ يبدو أنني مضطر لهذا. . لكن قد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. لقد

قابلت كل من تقدم للوظيفة وأنا واثق أنني سأجد الشخص المناسب من بينهم، لذلك ألغيت الإعلان. . وبالطبع كنت على حق. فقد وجدت شخصاً مناسباً تماماً. . لكن يبدو أنني مضطر لإعادة الإعلان والعودة إلى ذلك الروتين مجدداً. وقد تمر أسابيع قبل أن أحل المشكلة. . وفي هذا الوقت، قد تموت الورود من الإهمال. . لقد أخبرتني هذا بنفسك إن كنت تذكرين.

كانت على وشك الرد حين دخلت ليز تحمل بخجل طبقاً من البسكويت المحلى. . نظرت إلى الرجل الغريب وقالت:

ـ لقد أخرجتها بنفسي من الصينية.

قال غرايغ رداً على عرض الصغيرة الواضح دون كلام:

ـ سأحب تناول بسكويتة بكل تأكيد. . في الواقع كنت أتمنى أن تقدميها لي.

تناول بسكويتة من الطبق، وبدا كأنه لم يلاحظ أنها كسرت ووقع فتات إلى السجادة، حيث قفز برنس من تحت المقعد ليلتهمها كأسد متربص. قضم السيد بوكستر البسكويتة مفكراً وعيناه نحو السماء، ولاحظت إيبرل أنه متذوق خبير. . أما ليز فراحت تنظر إليه بترقب وفم مبتسم، حين ابتلعها نظر إليها وقال بوقار:

ـ أتعرفين. . هذه تبدو من أفضل أنواع البسكويت الذي تذوقته في حياتي؟

ابتسمت ليز فأخذ يدها وطبع قبلة عليها:

ـ والأكثر من هذا. . أنا لم ألتق قط بخبازة أجمل وأكثر سحراً.

أطلقت ليز ضحكة وركضت نحو إيبرل لتخبىء وجهها في تنورتها. . نظرت عيناه إليها وأحست به يداعبها. . وتمتم:

ـ إنها تحبك كثيراً.

ـ وأنا أحبها أيضاً كثيراً.

٣ ـ حق رجلٍ في فتاة

لم تكن إيبرل تعتزم العمل لدى السيد بوكستر، ولكنها لم تفهم السبب الذي جعلها تهتم بالاحتفاظ برقم هاتفه المسجل على آلة الرد بحيث لم تعد تفكر، بعد أن أوصلت ليز ذلك المساء، سوى باسمه.

كانت الرسالة على آلة الرد رسالة عملية.. مع ذلك، فقد شعرت بإحساس لذيذ لدى سماعها صوته: «غرايغ بوكستر يتكلم: آنسة ساوندرز.. لدي مسألة هامة أريد بحثها معك. سأكون في ساكرامنتو بعد ظهر اليوم.. وسأسمح لنفسي بزيارتك على أمل أن أجدك.. إن أردت الاتصال بي يمكن الوصول إليّ في المزرعة» ثم أعطى رقم الهاتف.

مسألة هامة.. كيف يكون أمر إيجاد جنائني مسألة هامة لرجل مثله؟ رجل وسيم ناجح كما هو واضح، وفي الثلاثين من عمره مثل غرايغ بوكستر، لديه دون أدنى شك أشياء أخرى أكثر أهمية بكثير.

استخلصت إيبرل، أن الأهمية الملحة للأمر، ومن وجهة نظره، هي رغبته بالخلاص مما يعتبره عملاً مزعجاً.

أجل.. هذا هو الجواب الواضح.. إنه مثل أغلبية الرجال اعتاد الحصول على ما يريد.. فبالنسبة إليه، لا شك أنه أمر ملحّ له أن يتخلص من هذه المشكلة كي يتمكن من متابعة عمله.. حسناً، تتمنى له إيبرل الحظ في ذلك. من وجهة نظرها، حالة الأرض المزرية

أحست إيبرل بالحمرة تعلو خديها، فانتزعت نظرها عن عينيه.. فتنحنح قائلاً:

ـ أجل.. لقد أخذت ما يكفي من وقتك.. أم أنني قلت هذا سابقاً؟ سأذهب الآن.. على الأرجح لن أستطيع العناية بالورود قبل أيام، لذا إذا غيرت رأيك اتصلي بي.

ضحكت إيبرل بنعومة:

ـ وكأنك تعني هذا حقاً.. أقصد تشذيب الورود.

ـ أنا أعني هذا.. بعد يوم أو اثنين.

وأشار بيده بحركة عنيفة:

ـ سأقطع رؤوسها.. أوه على فكرة لم أسجل رقم هاتفي في الإعلان، لكن إذا قررت الاتصال ستجدين الرقم مسجلاً على آلة الرد في هاتفك.

وخرج بابتسامة مغرية.

حين أقفل الباب خلفه، استدارت إيبرل لترى تعبير الرضى مرتسماً على وجه ليز.. بعد لحظات من الصمت قالت الصغيرة:

ـ هل سمعت ما قاله عن البسكويت؟

ابتسمت إيبرل:

ـ أجل.. وماذا عن الأشياء الأخرى التي قالها؟ ألم أقل لك دوماً إنك طفلة جميلة؟

ابتسمت ليز بشيطنة.. وأدارت عينيها الزرقاوين الصافيتين نحو إيبرل، ثم قالت بلهجة تفسيرية لتصحيح كلامها:

ـ لا.. إيبرل.. حين قال هذا.. لم يكن يعنيني أنا حقاً.. بل كان يعنيك أنت.

***

www.elromancia.com

تستدعي عملاً كثيراً. وإذا لم تُرش بمبيد للأعشاب الضارة، فستنمو وتتكاثر ولن يبقى أي سبيل لإنقاذها سوى حرث الأرض وتسميد التراب، قبل زراعة مرجة جديدة.. وتلك الورود المسكينة! بالرغم مما قال، فهو لن يشذبها وكأنها سياج أشواك على حافة الطريق.. هل يفعل؟

مرت الصورة مخيفة في خيال إيبرل فعقدت العزم على الاهتمام بالورود في الصباح التالي.. لكن، هذا فقط! إنها مصممة على عدم العمل لديه بالرغم من حاجته الملحة لجنائني.. كانت تدرك أنه قام بابتزازها للوصول إلى هذا القرار.. لكن فكرة الهلاك الذي ينتظر الورود أزعجتها كثيراً لدرجة أنستها خيبة أملها..

ترددت إيبرل قليلاً قبل أن تقوم بطلب الرقم.. أرادت أن تسمع صوته، أن تكون على صلة ما معه، ومع ذلك، لا تريد. هكذا أحست بمزيج من الارتياح والخيبة، حين أعلمتها السيدة أغريبا أن السيد بوكستر غير موجود.

ـ أوه.. هكذا إذن.

وتساءلت ما إذا كانت هذه فرصة لها لتنسى الأمر كله، وسألت السيدة أغريبا:

ـ من المتكلم؟

ـ أنا إيبرل ساوندرز.. قابلتك بالأمس..

قاطعتها المرأة ساخرة:

ـ وكأنه يمكنني النسيان.. قال السيد بوكستر إنك إن اتصلت بخصوص الورود، فبإمكانك المجيء متى شئت.

لاحظت إيبرل أنه كان واثقاً أنها ستتصل. وبطريقة مماثلة، باردة، ردت على المرأة.

ـ شكراً لك، سأكون هناك بعد قليل.

وأقفلت الخط قبل أن تقوم المرأة بذلك قبلها.. من أين تعلمت هذه المرأة أن تتصرف بمثل هذه الطريقة الفظة مع شخص لم يسبب لها ضرراً؟

وصلت إيبرل إلى المزرعة بعد أقل من ساعة.. قامت بارتداء قفاز عمل وجدته في صندوق أدواتها، وباشرت فوراً بعملها. كان الطقس ممتعاً أكثر من الأمس.. يوم وصافٍ ومشمس ومرتفع الحرارة قليلاً. قاربت الساعة الحادية عشرة، فتوقفت إيبرل عن العمل بعد أن أنهت نصفه تقريباً لإحساسها بالجوع، وتناولت الغداء الذي أحضرته معها.

فجأة اخترق سكون الريف صوت هدير محرك سيارة، ورفعت إيبرل رأسها لترى جاغوار بلون فضي تتقدم في الممر الداخلي الوعر، وتتوقف أمام المنزل.. لم تستطع إيبرل أن ترى المرأة التي نزلت من الجانب الآخر بوضوح ودخلت المنزل دون قرع للجرس، لكن بدا واضحاً أنها شقراء، أنيقة الملبس.. من هي؟ لا بد أنها مقربة من غرايغ بوكستر لتدخل منزله وكأنها من العائلة.. ربما تكون كذلك؟ أحست إيبرل بالحرج لفضولها الغريب، ولتفكيرها العدائي الواضح.. وقالت لنفسها: واجهي الواقع! رجل مثل غرايغ بوكستر لا بد أن تكون امرأة كهذه في حياته.. امرأة مقربة وكأنها من العائلة، أو ربما أكثر.. ثم هناك احتمال آخر.. لكن إيبرل رمت بالفكرة بعيداً وانكبت تتابع عملها.. فلا شيء يعنيها من أمور السيد بوكستر.

من المثير للقلق أن تستمر بالتفكير بذلك الرجل المثير للسخط والحيرة معاً.. عرفت إيبرل عدداً من الرجال في حياتها وأغرمت بالبعض منهم.. وهي حالياً معجبة بمات مورهيد المسؤول الاجتماعي عن ليز.. لكن أفكارها لم تتجه بإلحاح نحو رجل، ولم تتجاوب من قبل للمسة منه أو لسماع صوته بمثل هذه الطريقة المثيرة للخوف.. هذا أمر سخيف! لم تكن تعتقد بأنها من النساء اللواتي يفقدن عقولهن

www.elromancia.com

لأجل رجل.. ورجل أبعد بكثير من منالها.. ولمَ كل هذا.. إنها تتصرف كمراهقة! وفي الحقيقة، إنها ليست معجبة بطراز غرايغ العابث الذي لا يقيم وزناً للعلاقات الجدية.

كان الوقت ظهراً حين نظرت إيبرل برضى إلى كميات الأغصان المشذبة حول الورود، وعادت إلى سيارتها الصغيرة لتفتح لفافة طعامها.. أكلت سندويش الدجاج، وكانت تقضم تفاحة ندية حين لمحت من خلال زجاج سيارتها باب المنزل ينفتح لتخرج منه السيدة أغريبا متجهة نحوها ونظرة معاناة على وجهها.. قالت:

ـ السيدة بوكستر تريد أن تراك.

أحست إيبرل بقلبها يقع بين قدميها. جف حلقها بسبب الخيبة والإحباط حتى إنها كادت تختنق.. كم كانت غبية لظنها أن عدم وجود خاتم زواج يعني شيئاً في هذه الأيام.. بالطبع هو متزوج.. وأجبرتها كرامتها على استعادة تماسكها أمام المرأة.. وتنحنحت لتسأل بخشونة: الآن؟

ـ أجل.. الآن.

أعادت إيبرل التفاحة إلى صندوق الغداء وراحت تفكر بمظهرها المشعث والمتسخ بعد صباح عمل. أحست بالنظرة الخبيثة التي علت وجه السيدة أغريبا.. ثم تبعتها إلى داخل الردهة وهناك لاحظت وجود نباتات عليلة وكأنها تحتاج إلى غذاء. تقدمت السيدة أغريبا أمام إيبرل في الردهة نحو الحمام الذي استخدمته منذ أيام، ثم تخطته نحو ما يبدو أنه جناح من الغرف المتصلة ببعضها، وتوقفت عند باب مقفل لتقرعه ولدى سماعها كلمة «ادخل» دخلت تتبعها إيبرل على مضض.

وقعت عينا إيبرل فوراً على امرأتين جالستين في مواجهة بعضهما البعض على مقعدين مزدوجين بيضاوي اللون وموضوعين على جانبي مدفأة مصنوعة من حجارة بيضاء، وبينهما طاولة وضعت عليها صينية

بدت فيها بقايا غداء. كانت الشابة التي شاهدت إيبرل وصولها تجلس مسترخية على المفرش الناعم للأريكة.. كانت نظرة عينيها الزرقاوين حادة ومتفحصة.. أما المرأة الأكبر سناً فقد كانت تجلس مستقيمة، مظهرها يدل على وقار واثق.. خصلتان من الشعر الأبيض مرتدتان إلى الخلف عن وجه وسيم قوي البنية، لتنتهيا خلف رأسها بتسريحة على الطراز الفرنسي.

لكن العجيب في الأمر أن النظرة الباردة للسيدة أغريبا انقلبت إلى أخرى ذات تقدير، وأصبحت لهجة صوتها عذبة وهي تقدمها بلباقة: آنسة ساوندرز.. سيدتي.

أربكها هذا التحول في تصرفات المرأة، وازداد حين مدت المرأة المسنة يدها لمصافحة إيبرل وابتسامة لطيفة تعلو وجهها: أنا سعيدة بلقائك، آنسة ساوندرز.. هذه ريبيكا ماونتن.

وأشارت إلى الشابة الشقراء الأنيقة، التي أومأت لإيبرل بهزة رأس كسولة.. وأكملت المرأة المسنة:

ـ سيدة أغريبا.. أعتقد أن الآنسة ساوندرز ستكون مسرورة إن قدمت لها شراباً ساخناً.. أتفضلين الشاي أم القهوة عزيزتي؟

ردت إيبرل وهي تحاول جاهدة استرجاع هدوئها:

ـ أوه! شكراً لك.. سآخذ فنجان قهوة.

ـ وأنت ريبيكا؟

ـ لا شيء لي ماريان.. يجب أن آكل وأسرع في الذهاب فأنا أتوقع زيارة غرايغ لشرب القهوة بعد الظهر.. ثم لدي بعض المهمات التي أنجزها في هذه الأثناء.

شعرت إيبرل بارتياح كبير، فلا بأس أن يكون غرايغ على علاقة حميمة مع هذه المرأة طالما ليسا متزوجين.. مع أن الأمر لا يعنيها على أي حال. وقفت ريبيكا ماونتن برشاقة، وطبعت قبلة خفيفة على خد

المرأة المسنة.. ثم استدارت نحو إيبرل بابتسامة خبيثة، وقالت بصوت أجش:

ـ أمر ساحر أن ألتقي بامرأة تقوم بأعمال جسدية.. لكن لكل امرىء ميوله كما أعتقد.

قالت السيدة أغريبا بابتسامة نصر:

ـ سأرافقك إلى الخارج.

رفعت صينية الطعام ولحقت ريبيكا بمشيتها التي تشبه مشية عارضات الأزياء، ثم أقفلت الباب وراءهما.

قالت السيدة بوكستر:

ـ اجلسي أرجوك، آنسة ساوندرز.

وأشارت إلى الأريكة التي كانت تحتلها ريبيكا.. أجالت إيبرل نظرها في الغرفة بحثاً عن كرسي خشبي لا يتسخ من ملابسها الملطخة، لكن السيدة بوكستر فهمت نيتها وقالت:

ـ لا تقلقي عزيزتي، ثيابك تبدو نظيفة تماماً.. على أي حال.. أغطية الأرائك يمكن غسلها.. فأنا امرأة عملية، لن أختار هذا اللون الفاتح لو لم يكن من السهل غسله.

جلست إيبرل بحذر شديد وهي تحاول أن تستخلص جاهدة السبب الذي استدعيت من أجله.. ربما سيتضح الأمر بعد إدخال السيدة أغريبا للقهوة.

قالت السيدة بوكستر بخفة:

ـ لا شك أنك لاحظت أن الأراضي الخارجية في حالة فوضى.. لقد اشترى ولدي هذا المنزل مؤخراً، وأنا وصلت إليه في نهاية الأسبوع الماضي.. كان لدى المالكين القدامى مشاكل كثيرة منعتهم من الاهتمام بأمور المنزل. وكانوا يعتبرونه مجرد منزل ريفي لهم.. لكنني أنوي وولدي أن نجعله منزلنا الرئيسي.. هكذا، وكما ترين،

أمامنا عمل كثير ملزمان بإنهائه.

تمتمت إيبرل بأدب توافق على كلامها، ثم امتنعت عن التعليق مع دخول السيدة أغريبا التي وضعت الصينية فوق الطاولة الصغيرة وأحست إيبرل بأنها تتصرف نحو المرأة المسنة بولاء كبير. وابتسمت لها كذلك بانحناءة خفيفة وهي تخرج من الغرفة مجدداً.

قالت السيدة بوكستر تتابع الحديث، وهي تصب القهوة:

ـ سيصبح هذا المنزل مميزاً جداً كما أعتقد.. وأعرف أن على المرء أن يحب ويحترم المنزل العائلي.. لكن يجب أن أعترف أنني سعيدة لخلاصي من منزلي.. لقد عشت طويلاً في واحد من تلك البيوت القديمة الضخمة قرب «ماكنلي بارك».. أتعرفين المنطقة؟

ذهلت إيبرل للمصادفة:

ـ أوه.. بالتأكيد أعرفها.. لقد تربيت هناك.

ـ حقاً! ستفهمين إذن كيف أن امرأة مسنة مثلي، تعيش بمفردها تفضل منزلاً ظريفاً دافئاً كهذا.. وأنا ممتنة جداً لغرايغ لإصراره على أن أسكن معه هنا.. فليس كل ابن أعزب يرغب بأن تكون أمه العجوز بين يديه.

اعترضت إيبرل على قول السيدة بوكستر بأنها امرأة عجوز.. لكنها وافقت في سرها على أن بقاء أم مع ابنها الأعزب، بغض النظر إن كانت عجوزاً أم لا، هو أمر قد لا يرحب به الكثير من العزاب.. وهذا أمر يظهر جانباً إنسانياً من نفسية الرجل لم تقدّره إيبرل أبداً..

وتابعت المرأة:

ـ بالطبع، أريد أن يفيده وجودي معه، فبسبب أعماله لديه مكان سكن في ساكرمنتو، وشقة في سان فرانسيسكو.. لكنه الآن وقد تجاوز الثلاثين، يبدو أنه شعر بالحاجة إلى بيت حقيقي، ألا توافقيني الرأي؟ وإلى أن يتزوج ويكون له زوجة تصبح محور حياته، أتمنى أن

www.elromancia.com

أساعده قدر استطاعتي.

قالت إيبرل: أفهم هذا.

ربما لهذه المرأة علاقة بتصميم ابنها الملح على إصلاح الأراضي.. وراودتها فكرة أن حديقة منزل السيدة بوكستر السابق لا بد كانت مرتبة ومعتنى بها مثل حدائق الخالة مارغريت.. قد لا تعترض أمه على منزل ريفي بسيط، لكنها لن تقبل العيش بالتأكيد وسط هذه البرّية.. وبكل تأكيد، ريبيكا المتكبرة التي أحست إيبرل أنها المرشحة الأولى لمحور حياة غرايغ المستقبلية، ستتوقع محيطاً يناسب جمالها.. وعاد انتباه إيبرل إلى السيدة بوكستر وهي تسمعها تقول:

ـ أرى، حسب كتاب تعريفك، أن إيان هيوشو هو الذي دربك.. وفي ساكرمنتو، لا يستطيع أحد سوى التفاخر بشرف كهذا.

أحست إيبرل بالاعتزاز لمعرفة أن اسم إيان العزيز وشهرته يعيشان بعده، وسألت:

ـ أوه.. أتعرفين إيان؟

ـ أجل.. فقد كانت حدائق مارغريت باون مثار حسد كل أهالي ساكرمنتو.. وعرض عليه كثيرون رواتب مغرية جداً للعمل لديهم ولكنه لم يقبل تركها.. وما من أحد فهم السبب، فهي لم تكن تقدره كما يجب وكان بإمكانه العمل لحساب غيرها وتحسين وضعه.

أحست إيبرل بالإحراج لما سمعته من السيدة بوكستر، ومع أن معظمه كان جديداً على مسمعها ومذهلاً، إلا أنها أحست أن عليها أن تتكلم فوراً قبل أن تتفوه العجوز بكلام عن الخالة مارغريت قد يجده كلاهما محرجاً.

أكملت السيدة بلهجة من يتذكر:

ـ أذكر حفلة أقامتها مارغريت في الحديقة..

قاطعتها إيبرل بسرعة:

ـ مارغريت باون هي خالتي سيدة بوكستر.. لقد ربتني، وهكذا دربني إيان..

بدت الصدمة على وجه المرأة:

ـ أوه.. يا فتاتي العزيزة.. ماذا فعلت! هل قلت شيئاً أساء إليك؟

سارعت إيبرل تطمئنها بصوت لطيف:

ـ لا.. بالطبع لا.. فأنا كذلك كنت أدرك أن خالتي لا تقدر إيان حق قدره.

لكن السيدة بوكستر بدت محرجة، ربما من الأفكار التي راودتها بشأن السيدة مارغريت وكانت تهم بقولها، لو لم تتدارك إيبرل الموقف. رق قلبها للمرأة المسنة التي بدت تائهة، فاختارت كلماتها بحذر في محاولة لتلطيف الجو، وكي لا تكون جاحدة لجميل خالتها. قالت للسيدة بوكستر بخفة وصوت مرح:

ـ أتعرفين؟.. لقد شرح إيان لخالتي عدة مرات أن قطع الورود يجب أن يتم من فوق خمسة عقد للبراعم.. لكنها كانت تصرّ على قطعها بشكل عشوائي حتى يتناسب طول سيقانها مع القارّة التي تفكر بها.. حتى أننا اضطررنا، هو وأنا، إلى منعها من قطع الورود.

ارتاحت إيبرل لاسترخاء وجه السيدة بوكستر وضحكت وهي تعيد ملء فنجاني القهوة، أصبح تعبير وجه السيدة مفكراً:

ـ إذن أنت هي ابنة الأخت الصغيرة التي ربتها مارغريت بعد وفاة أختها.

وكأنها رجعت إلى ماضٍ مليء بالذكريات الجميلة، رفعت رأسها مبتسمة بحياء. ورأت إيبرل ابتسامة غرايغ الفاتنة مرتسمة على وجه أمه، لا شك أنه ورثها عنها.

ـ أعتقد أننا التقينا من قبل، مع أنك كنت صغيرة جداً لتتذكري. لقد زرت مارغريت يوماً، وخلال الزيارة ذكرت أن صديقة لنا تحدثت

بإعجاب عن ورود بيضاء رائعة في حديقتها، وسألتها إن كان بإمكاني رؤيتها. فاصطحبتني إلى الحديقة.. وهناك وجدت إيان يعتني بالورود كالعادة، وفتاة صغيرة تلعب إلى جانبه.. وهناك وقفت السيدة مارغريت مرتبكة أمام مجموعات الورود المختلفة، ولاحظتُ وقتها أنها لا تعرف أي من الأنواع هو ورد السلام الأبيض.. ثم مدت يدها إلى وردة بيضاء، فناداها إيان وتقدم نحونا بسرعة فائقة وهو يلهث، ثم ابتسم وانحنى أمامنا قائلاً إن الآنسة إيبرل ستكون مسرورة بأن تقطف لنا الورود التي نريدها، فأخبرتها مارغريت بأن السيدة بوكستر ترغب في وردة سلام.. ومع أنك لم تتجاوزي الثامنة يومها، فقد تناولت المقص من إيان، ودون أي تردد، تقدمت نحو الورود المطلوبة، وقطعت ثلاث زهور بدرجة متساوية من الطول.. هل تذكرين هذا؟

ابتسمت إيبرل والحنين يملأ قلبها.

ـ لا.. أنا آسفة، لا أذكر هذه الحادثة بالذات، فقد كان هذا الأمر يحدث دائماً..

امتنعت إيبرل عن تناول فنجان قهوة آخر، وقالت:

ـ كان هذا لقاء ساراً جداً سيدة بوكستر.. لكنني يجب أن أنهي عملي الآن.

ـ بالطبع.. لقد كنت أنانية.. امرأة عجوز ثرثارة. لكن قبل أن تذهبي.. أتساءل إن كان بإمكانك الإصغاء إلى قصتي المؤسفة، إيبرل.. هل تمانعين في أن أناديك باسمك؟

ـ بالطبع لا.. أرجوك.

ـ شكراً لك عزيزتي.. الواقع أنني تسرعت ووعدت منظمي جمعية أنتمي إليها بأنهم يستطيعون استخدام هذه الحدائق لحفل خيري صيفي.. سيكون ذلك في حزيران (يونيو).. ولقد حاول غرايغ العزيز استخدام جنائني لمركز دائم.. لكن، كما تعرفين..

وبدأت عيناها تلمعان:

ـ... لم ينجح. لطالما كان لغرايغ طبيعة متقلبة، لكن يجب أن أعترف أنني نادراً ما رأيته ضجراً ومحبطاً كهذه الأيام.. حين عودته بعد ظهر الأحد مباشرة، كان يبدو شديد الحيرة والتفكير. قال إنه وجد جوهرة بين النفايات.. لكنها رفضت العمل. وقال: لقد فعلت ما بوسعي.. والباقي عليك.. وحين سألته أكثر قال لي على مضض إن هذا حدث يوم جئت لمقابلته.

أحست إيبرل بحرج رهيب لمعرفة السيدة بوكستر بتفاصيل ما حدث، وكم تمنت أن تعرف كيف شرح لأمه تصرفه الخشن معها. ولكنها حاولت ولأجل العجوز، أن تستخف بما حصل.

ـ كان مجرد سوء تفاهم سخيف سيدة بوكستر.. أعتقد أنني كنت متوترة أكثر من اللازم.

ـ ربما، وربما لا عزيزتي.. فغرايغ يميل إلى التصرف بحرية كبيرة في بعض الأحيان.. لكن المهم في الأمر الآن أنني أخذت على عاتقي أن أجد جنائنياً، لأنني أنا المستعجلة. لذلك سيكون موظفاً عندي ولا علاقة لغرايغ به.. فهل لهذا فرق في مسألة قبولك العمل أم لا؟

ترددت إيبرل، تفكر.. كم سيؤثر عليها هذا التغيير؟ لا مجال للسؤال أنها بحاجة إلى العمل.. وبكل تأكيد ستكون سعيدة بالعمل مع امرأة تعرف فعلاً أن هناك قواعد وأوقات معينة يمكن قطع الورود خلالها.. وإذا لم تكن على اتصال مع ذلك الرجل...

قالت مبتسمة:

ـ أجل سيدة بوكستر أظن لهذا فارق كبير.

ابتسمت السيدة بارتياح:

ـ أوه.. أنا مسرورة جداً إيبرل. سنقضي أوقاتاً ممتعة لجعل هذا المكان كالجنة.. وأريدك أن تعلمي أنني أكن كل الإعجاب لخيارك

العملي.

أحنت إيبرل رأسها لتخفي دموع العرفان بالجميل التي لسعت عينيها.. فعدا عن إيان، كانت السيدة بوكستر الوحيدة التي أعطتها التقدير لخيارها بأن تكون جنائنية.

تكلمت السيدة بصوت منخفض وكأنها تسرّ لها:

ـ ألست ممتنة لأنك شابة في زمن تستطيع الفتاة فيه أن تقوم بالعمل الذي يثير اهتمامها؟ أتعلمين، لو كنت فتاة شابة اليوم لرغبت في أن أمتهن قيادة الطائرات.

ضحكت إيبرل:

ـ أتمنى لو أن معظم الناس ينظرون إلى الأشياء كنظرتك سيدة بوكستر.

ـ أوه.. تباً لهم عزيزتي.. إنهم تافهو العقول ودون إبداع، يخافون المغامرات وحياة المخاطرة.. يجب أن تتعلمي عدم الاهتمام بهم.

أحست إيبرل بالنشاط لكلام السيدة بوكستر، ووضعت الأخيرة معطفها فوق كتفيها استعداداً لأن تريها مكان نومها.. الراتب الذي اتفقنا عليه كان أكثر من سخي، وستتمكن الآن من مساعدة الزوجين إيثنز مادياً.. مرت المرأتان عبر غرفة الجلوس الكبيرة المواجهة للمدخل، وقالت السيدة بوكستر إن بإمكان إيبرل أن تهتم بالنباتات الداخلية الاستوائية، اتجهتا عبر الشرفة نحو المنزل التابع لبركة السباحة وقالت إيبرل للسيدة:

ـ لدي قط سيدة بوكستر.. آمل أن لا يكون هناك إزعاج في هذا.

ـ لا بأس أبداً.. أنا مغرمة بالقطط.

لا تبدو هذه السيدة كغيرها من العجائز! كانت تسير متمتعة بجو الريف النقي.

ـ ما اسم قطك؟

ـ برنس.

أحست إيبرل بصحبة حميمة وبرغبة كبيرة في احتضان السيدة بوكستر.

ـ لقد أسميته برنس، لأنه قوي المظهر ولطيف المعشر.

وصلتا إلى المنزل ضاحكتين، ودفعت السيدة بوكستر الباب لينفتح، ثم أشارت إلى إيبرل بالدخول.. كان المنزل الصغير تقريباً بذات حجم شقة إيبرل، لكن تصميمه أكثر دقة.. الغرفة الرئيسية كبيرة، بمدفئة من الحجر الأبيض وموقد من الصخر الأسود. النوافذ العريضة من الخشب الأبيض. دعتها السيدة بوكستر:

ـ تعالي لتشاهدي المطبخ.

كان المطبخ الأكثر جمالاً الذي رأته إيبرل في حياتها، مكتملاً بكل الأدوات التي تم اختراعها.

سألت السيدة بوكستر:

ـ هل تحبين الطبخ؟

ـ أجل، وأنا بارعة فيه..

قالت المرأة المسنة بحماس:

ـ حقاً! ربما تقومين بدعوتي يوماً للغداء.

تمتمت إيبرل أنه يشرفها هذا، لكنها تساءلت عما إذا كانت ستجد صعوبة في المحافظة على هذه العلاقة بين رب عمل وموظفه. قالت محاولة تغيير الموضوع:

ـ بما أن هذا المنزل تابع لبركة السباحة، ألن ينزعج ضيوفكم صيفاً؟

ـ أوه.. لا.. فغرف الضيوف في الجانب الآخر الأقرب إلى المنزل.. وما هو أهم، أرجو أن لا تنزعجي أنت من الضيوف! على أي

حال، سنستقبل الناس في نهايات الأسابيع وأتوقع أن تكون لفتاة جميلة مثلك اهتمامات أخرى لقضاء أوقات فراغها الأسبوعية بدلاً من إمضائها في المنزل.

لمحت السيدة نظرة مترددة على وجه إيبرل فأكملت مضيفة:

ـ لكن لا يجب أبداً أن تشعري بأنك مضطرة لمغادرة بيتك إذا كنت لا تريدين.. وأتصور أنك سترغبين في استضافة أصدقاء لك من وقت لآخر.. أؤكد أن كل شيء سيكون على ما يرام.. فعائلة بوكستر ليست اجتماعية جداً على أي حال.

بحثت إيبرل مع المرأة كافة التفاصيل المتعلقة بالسكن وموعد انتقالها إليه بالإضافة إلى مصاريف احتياجاتها المنزلية اليومية. ثم ودعت السيدة بوكستر بمصافحة قوية، وعادت لتكمل عملها في الحديقة.. وهناك راحت تستعيد كل ما جرى معها في هذا اليوم المميز وأحست بأنه من أسعد الأيام التي مرت في حياتها خلال الأربع وعشرين سنة الماضية.. لقد حصلت على منطقة خاصة بها.. بما أن الأرض تعتبر ملكاً لمن يعمل فيها.. وهذا أقصى ما كانت تطمح بالحصول عليه حتى إن بقيت دون تأسيس عائلة خاصة، فهي قانعة بما وصلت إليه.

كانت الساعة تقارب الرابعة بعد الظهر والظلام يوشك على الهبوط، حين أنهت إيبرل وضع كل الأغصان المقلمة في أكياس بلاستيكية سوداء، ليقوم بأخذها عامل التنظيفات..

جمعت إيبرل معداتها، وكانت تفتح الباب الخلفي لسيارتها حين أطلت البورش السوداء من حيث لا تدري، متهادية فوق الحفر في الممر الداخلي.. حفر يجب أن يتم إصلاحها قبل أي شيء آخر.. وتوقفت السيارة في مواجهة سيارتها مباشرة. وبما أنها كانت تشعر بالرضى والقناعة من عملها الجديد والمستقبل الهانيء الذي ينتظرها،

فقد أحست بسعادة غامرة لرؤية غرايغ بوكستر.. لا شيء مما حدث في الماضي يمكن أن تكون له أهمية في هذه اللحظة.. ربما لن يدوم الأمر، ولا يجب أن يدوم.. لكنها الآن مبتهجة لرؤيته نشيطاً، يمتلىء رجولية وقوة، وهو ينزل برشاقة من السيارة ويتقدم نحوها بابتسامته الساحرة التي لا تقاوم.

قال يحييها:

ـ تبدين مشرقة بعد نهار عمل بهذه الثياب والقفازات.. مع أنك كنت جميلة أيضاً مع الفم الليلكي!

ضحكت إيبرل:

ـ لا تبدو الدهشة عليك لرؤيتي..

ـ كنت أعرف أن أمي ستنجح في التحاور معك، فهي لم ترض يوماً سوى بالأفضل.. ولقد تعلمت هذا منها.

ـ لكن ما الذي جعلك تظن أنني قادمة؟

ـ أوه.. أنت مستعدة للسير في نار جهنم لأجل عملك. وعرفت أنك لو قابلت أمي فلن تألو جهداً لإقناعك بالبقاء.

أحست بارتباك وأضافت:

ـ حسناً.. لا شك أن الأخبار تنتقل بسرعة.

ـ الأخبار الجيدة طبعاً.. لقد اتصلت بأمي لأستعلم إن سار كل شيء على ما يرام.. لم أكن واثقاً من أنك ستخضعين حتى لسحر أمي.. ولو لم تفعلي.. فلم أكن على استعداد لمواجهة طباعك الغاضبة مجدداً.

ضحكت إيبرل:

ـ تجعلني أبدو وكأنني من برج العذراء!

ـ لا.. أبداً.. لكنك خصم يحسب له حساب.

ساد بينهما صمت قصير، بدا خلاله لإيبرل أن بإمكانه قول ما يحلو

له الآن ولن تظن ذلك سخيفاً أو مضحكاً.

وردت ممازحة:

ـ الآن على الأقل لن أموت جوعاً.

وشاركها بأن رمى رأسه إلى الوراء وضحك بطريقة حركت مشاعرها وأثارت تسارع خفقات قلبها.. وظلت البسمة مرتسمة على وجهه وهو ينظر إليها متفرساً في العتمة المتزايدة.

ـ تبدين لي كوردة حمراء ندية.. أتعرفين هذا؟

احمر وجهها وأدارته بعيداً فقال:

ـ لا.. لا تنظري بعيداً.. أظن أنني سأدعوك «الحمراء» إن لم يكن لديك اعتراض.

لم تعد تملك القوة للاعتراض، كل ما فعلته هو أنها وقفت مسمّرة ونظرتها متشابكة بنظرته. أخيراً قال بمرح:

ـ لا شك تذكرين أنك أعربت عن تفضيلك الموت جوعاً على العمل لدي، لكن بما أنك الآن تعملين بأمان مع أمي.. هل لي أن أقول لك شيئاً؟ أنا كذلك أفضل الموت جوعاً على أن تعملي لي.

فغرت إيبرل شفتيها دهشة لهذه الملاحظة المثيرة للسخط، لكن قبل أن تجمع شجاعتها لترد، خطفها كما يخطف الصقر فريسته ولف ذراعيه حولها بقوة لم تستطع معها أية مقاومة. وزاد من ضغط عناقه لها حتى أحست بمشاعر دافئة تتسلل عبر جسدها، وتوقف دماغها عن التفكير. وسرعان ما لم يعد هناك في العالم شيء سواهما.

عادت فجأة إلى وعيها، فجذبت نفسها بعيداً عنه لترى السيدة أغريبا تقف أمام الباب المفتوح للمنزل.. كان الوقت قد أصبح شديد الظلمة لتميز تعابير وجهها، لكن هناك ما يكفي من ضوء لرؤية الرفض المصدوم في وقفتها.. الآن ستضيف هذه المرأة الرهيبة نقطة سوداء لإيبرل، وستزداد كراهيتها لها.

فجأة تعالى صوتها كنورس:

ـ سيد بوكستر! هاتف مهم لك.

هزت إيبرل نفسها كحمامة متعبة، واستدارت إليه:

ـ ماذا تعني بجرأتك هذه؟ ومن الذي أعطاك الحق.. بأن تتصرف هكذا...

ـ حق أي رجل في فتاة، يا وردتي الجميلة الحمراء.. أما بالنسبة لجرأتي، فإن لم يكن لديك ما يشغلك الليلة، فكري بها. وأنا واثق أن فتاة ذكية مثلك تستطيع فهمها.

صاحت به وهو يستدير متجهاً نحو المنزل: حقير!

رده الوحيد كان أن استدار ولوّح لها بغير اكتراث، قبل أن يركض ليرد على المخابرة الملحة.. ولم تكن بحاجة لكثير من التفكير كي تعرف من المتكلم! عضت إيبرل بشدة على شفتها السفلى لتوقف دموع الغضب التي كانت تغرق عينيها.. لسوف تموت قبل أن تسمح له باستغلالها مرة أخرى! «حق رجل في فتاة..» حقاً! وأحست بالحقد يعتمر في قلبها.

أدارت إيبرل سيارتها بعنف، وانطلقت بسرعة عبر الطريق الداخلية الوعرة، باتجاه منزلها الذي تخلت عنه لتوها وإلى بؤس لا تعرف مقداره سوى السماء وحدها!

***

٤ ـ حلاوة الانتقام

كانت إيبرل تغلي غضباً.. دفعت سيارتها إلى أقصى درجات سرعتها في رغبة منها كي تضع أطول مسافة ممكنة بينها وبين ذلك الرجل المتعجرف.. حتى لفتاة بلهاء، لم يكن يلزمها طوال المساء لتفهم معنى ملاحظته المثيرة للسخط.. إنه يفضل الموت جوعاً على أن تعمل له.. إنه رجل متعالٍ أكثر من اللازم ويخشى أن يتهامس بنو جنسه حوله لاستئجاره امرأة من أجل القيام «بعمل رجل».

ثم.. لو أن إيبرل موظفة لديه، ما كان ليأخذ حريته كما هو واضح أنه يعتقد الآن، وربما تخلى عن التزاماته نحوها. أوه.. إنها تعرف أن العديد من أرباب العمل يستغلون موظفاتهم بطريقة أو بأخرى.. لكنها تشعر، وبقدر ما تكره غرايغ، أنه ليس من النوع الذي يستخدم نفوذه كرب عمل لاستغلال موظفة لديه.. ولكن مهما يكن من أمر فقد أخطأ بحساباته هذه المرة! لقد وافقت على الوظيفة وتريدها، ولن تدعه يفسد كل شيء.. لا لها، ولا لأمه! لكنها ستتأكد أولاً من أن يفهم القواعد الأساسية: إيبرل موظفة لدى السيدة بوكستر وليس لديه.. وهي ليست بالفتاة التي تنغمس في عبث عابر.. لذا، فليوفر عناقه وإطراءه للجميلة ريبيكا.

حين وصلت منزلها، وجدت رسالة على آلة الرد في هاتفها من مات مورهيد.. حين طلبته دعاها للعشاء، فقالت بسرور:

ـ لن أتمنى شيئاً أفضل.. أشعر برغبة في الاحتفال الليلة.. أتذكر ذلك العمل الذي تقدمت له؟ لقد حصلت عليه!

ـ رائع! في هذه الحالة، سأصطحبك إلى مطعم «أولد ساكرمنتو» فهذا يدعو إلى احتفال مميز.. لا يتحقق كل يوم حلم لفتاة.

لم تكن بحاجة لصديق أكثر إخلاصاً من مات.. لسوف تعتني أكثر من العادة بزينتها ولباسها، وستجعله فخوراً بها.. لكن أولاً يجب أن تكلم مدير مجمع الشقق بأمر انتقالها.

بدا أن السيد واتسون كان ينتظرها، فقد هز رأسه بنفاد صبر حين بدأت تخبره عن سبب زيارتها:

ـ أجل.. أجل.. أعرف.. لقد اتصلت السيدة بوكستر للتو وشرحت لي الأمر كله.. من الطبيعي أن أكون سعيداً بتنفيذ ما طلبته مني.. فآخر شيء أفكر به هو أن أقف في طريقك، إيبرل.. فهذه فرصة رائعة لك.. ومع وجود عائلة بوكستر كمرجع تعريف عنك في المستقبل، ستتمكنين من كتابة تذكرة نجاحك بنفسك.

صاحت به ممازحة:

ـ واو! بدلاً من أن أخبرك بنفسي عن خططي.. لماذا لا تخبرني أنت عنها! ما الذي طلبته السيدة بوكستر وستكون سعيداً للقيام به؟

ـ لقد قالت إنكما اتفقتما على أن تبدأي العمل لديها فوراً.. لكنك لن تنتقلي إلى هناك قبل أن يمر ثلاثون يوماً على إنذارك بترك العمل هنا.

ـ هذا صحيح.. فأنا متفقة معك على العناية بالحدائق سيد واتسون.. ولن أدعك في موقف حرج.

ـ لا تأبهي لهذا.. فهناك القليل من العمل في كانون الثاني على أي حال.. قالت السيدة بوكستر إن لم يكن هناك مانع لديك ولدي، أنها ستدفع عنك إيجار آخر شهر مقابل شهر الإنذار بترك العمل كي تتمكني

من الاستقرار عندها بسرعة، وبذلك تتجنبين الانتقال ذهاباً وإياباً لعشرين ميلاً كل يوم.. وأظن أن هذه لباقة منها، ألا تعتقدين ذلك؟ لن يتوقع المرء أقل من هذا من عائلة بوكستر.

لاحظت إيبرل أن السيد واتسون يعرف أشياءً عن العائلة لا تعرفها هي.. لكن بدلاً من أن يسخر منها لجهلها، هزت رأسها تتمتم بالموافقة على كلامه.. وبعد أن اتفقت معه على كل التفاصيل، رجعت إلى شقتها لتستعد للخروج إلى العشاء مع مات.

اغتسلت وجففت شعرها، ثم عقصت أطرافه إلى الداخل، ووضعت طبقة رقيقة من كريم الأساس على بشرتها ولمسة من اللون الأحمر لتزيد بروز خديها، ظلال للعيون أعطت لوجهها إشراقاً رائعاً أحست به، وهي التي لا تعي مدى جمالها.

من بين فساتينها القليلة الجميلة، اختارت فستاناً من الجيرسي الأخضر الجادي اللون، بأكمام طويلة وياقة مرتفعة، وتدلى القماش بنعومة فوق جسدها. وكانت تضع قرطاً من الجاد أرسلته لها خالتها في آخر عيد ميلاد لها حين قرع جرس الباب وركضت لتفتحه.

بدا مات كذلك وكأنه اعتنى عناية خاصة بما يرتديه لموعدهما.. شعره الأشقر القاتم المجعد بدا مقصوصاً ومسرحاً، ابتسامة الإعجاب على وجهه انعكست في عينيه البنيتين الدافئتين.

أخبرته إيبرل باختصار أثناء المسافة القصيرة إلى المطعم، عن عملها الجديد.. وصفت له الأملاك وموقعها، ومكان إقامتها الجديد في ذلك المنزل الرائع، واجباتها، وما إلى ذلك.. دهشت من نفسها لإخفائها عن مات ما حصل خلال المقابلة الأولى مع غرايغ.. منذ أسبوع خلا، كانت ستسرد عليه بالتأكيد مثل هذه القصة كنوع من الفكاهة المسلية. ولضحكا معاً.. لكنها الآن، تشعر أنها لا تريد أن تشارك هذا مع أحد، حتى العزيز مات.. وهناك تفسير واضح لترددها،

فهي لا زالت تغلي غضباً من الإذلال المتكرر الذي عرّضها له غرايغ بوكستر، ولا تريد أن يعرف مات بهذا الأمر.

إنها السادسة والنصف الآن وقد حلت ظلمة الشتاء في الشوارع المعبدة. في مساء هذا الاثنين من الشتاء، كانت المنطقة هنا أقل ازدحاماً بالسياح والمواطنين، مما تذكره إيبرل..

قال مات:

ـ ها قد وصلنا.

وقاد إيبرل إلى مدخل بناء كان قديماً معرضاً مزدهراً.

كانت السلالم العريضة والدرابزين مصنوعة من خشب السنديان الصلب، المتحول لونه إلى الذهبي من تأثير ملامسة مئات الأيادي عبر السنين.. وقف مات عند منصة الاستقبال، التي كانت يوماً مكاناً للصراف، وأعطى اسمه.. ثم دخلا المقهى الصغير بانتظار تقديم العشاء.

قالت إيبرل بخفة:

ـ كم أحب المجيء إلى ساكرمنتو القديمة، ورؤية المباني القديمة، والأرصفة، وكل المنحوتات اليدوية.. ألا تتصور كم أبدو سخيفة وأنا مأخوذة ببناء يزيد عمره عن المئة عام بقليل؟

ضحك:

ـ لا بأس في هذا.. فأنت تعيشين في بلد لا زال حديثاً.. فحتى الزمن هنا قصير.

وصل شرابهما، وهي ترفع كوبها إلى فمها لتحيي صورتها المنعكسة في المرآة مع مات. رأت وبرجفة قلب قوية، الوجه الأسمر المبتسم الساخر لغرايغ بوكستر يبرز فجأة فوق كتفها الأيمن، وإلى جانبه ريبيكا ماونتن البادية الانزعاج.

قال بلهجة جافة:

ـ مساء الخير آنسة ساوندرز.. كم من الممتع أن أراك مرة أخرى وسريعاً.

ابتلعت إيبرل ريقها بصعوبة، وهزت رأسها تحية لصورته المنعكسة.. ثم استعادت شجاعتها، واستدارت لتواجهه مباشرة، وقدمته إلى مات مع إحساس شديد بالدوار.. مد مات يده مصافحاً غرايغ:

ـ أنا سعيد جداً بمقابلتك سيد بوكستر.. كانت إيبرل تبدي إعجابها للتو بالعمل الذي أتممته هنا.

عم يتحدث مات بحق السماء؟ ولماذا هذا الاهتمام في صوته؟ وتابع قائلاً:

ـ هل لك أية علاقة بترميم هذا المبنى؟

ـ أنا فخور بأن أقول نعم.. كما إننا رممنا مرآب وقوف السيارات وبعض الأبنية في الشارع الثاني.

ـ لقد قمت بعمل جبار.. إيبرل وأنا كنا نقول لتونا إن المكان يبدو وقد انتقل في الزمن نحو مئة سنة إلى الوراء.

ـ لطف شديد منك أن تقول هذا سيد مورهيد.. لقد تمتعنا جميعاً بالعمل في هذا المشروع..

راح الرجلان يتحدثان باهتمام، فاغتنمت إيبرل الفرصة ولاحظت الثياب التي كانت ترتديها ريبيكا ماونتن. وتنهدت في داخلها.. إنها فتاة من الصعب منافستها.. ومع سأم ريبيكا من تركيز اهتمام الرجلين على حديث الأعمال، قالت لإيبرل:

ـ يا له من فستان جميل ترتدينه آنسة ساوندرز.. تبدين مختلفة تماماً عما رأيتك في صباح هذا اليوم حتى أنني ما كنت لأعرفك لولا أن أشار غرايغ إليك.

ثار غضب إيبرل.. لكن، وفي الوقت المناسب، تذكرت أن إيان

هيوشو علمها فنون القتال بشرف!.. فردت ببرود:

ـ وأنت، من ناحية أخرى، تبدين جميلة كما كنت في الصباح.. آنسة ماونتن.

تحول وجه ريبيكا إلى لون أحمر قاتم لانكشاف خبثها الحاقد من خلال رد إيبرل المطريّ لها. ونظر الرجلان إلى الأرض وابتسامتان ماكرتان تعلو وجهيهما فنالت إيبرل نصراً إضافياً لمعرفتها أنها لم تقل سوى الحقيقة.

جاء الساقي يقودهما إلى طاولتهما وسط ارتياح إيبرل، قبل أن تتاح الفرصة لريبيكا أن تستفيق وترد.. بعد أن جلسا، وضع مات منديله على حجره وفعلت إيبرل مثله ثم سألت:

ـ كيف حدث أنك تعرف غرايغ بوكستر؟

ضحك مات:

ـ ألا تقرأين الصحف أبداً؟ ولا صفحات المجتمع؟ الجميع في كاليفورنيا يعرفون من هو غرايغ بوكستر.. فمؤسسة بوكستر للبناء هي إحدى أكبر الشركات في الولايات المتحدة..

أجفلت إيبرل:

ـ هل هو «ذلك» البوكستر؟ بالطبع سمعت عن الشركة، ولقد رأيت لوحاتها على مواقع بناء في المدينة طوال حياتي.. لكن، لا.. أنا لا أقرأ صفحات المجتمع، وأنا لم أسمع بالاسم الأول لمالكها من قبل.. لذا لم أربط بين الاسمين. لا عجب أن السيد واتسون كان متحمساً جداً.

ولهذا إذن يعتقد غرايغ أنه قادر على استغلال مشاعر الآخرين للوصول إلى ما يريد.. إنه يدير شركة ضخمة ولم يأته النجاح بسهولة.

تابع مات يقول إن والد غرايغ بنى الشركة بقرض مصرفي بعد الحرب العالمية الثانية، وبمساعدة شريكه ليونيل ماونتن استطاع أن

يوصل شركته إلى مصاف أكبر شركات البناء في كاليفورنيا، وأكمل يقول بإعجاب:

ـ منذ وفاة أبيه، أي منذ حوالي عشر سنوات، وسع غرايغ نشاط الشركة إلى كل العالم.. إنه رجل فذ.

كررت إيبرل:

ـ ليونيل ماونتن؟ أتساءل إن كان هذا والد ريبيكا؟

لو كان هذا فهو يعني أنّ لديهما مصلحة عمل مشتركة.. وهذا سبب إضافي كي يتزوجا.. وكأن أفكارها كانت مغناطيسياً جاذباً، فقد رأت الاثنين يدخلان إلى غرفة الطعام، ويتجهان نحو طاولة وضعت في زاوية حميمة لشخصين.. بإحساس ثقيل موجع في صدرها، رأت إيبرل ريبيكا تمد يدها عبر الطاولة لتمسك بيد غرايغ. ثم تبتسم له بشغف المحب وهي تقول كلمات لم تفهمها إيبرل.

خلال تقديم العشاء، سرد مات على إيبرل تفاصيل يومه المتعب.. فبالإضافة إلى حمل مسؤوليته الكبيرة عن عشرين عائلة، كان يعيش يومياً مع حمل عاطفي ثقيل لا يصدق.. حينها تذكرت إيبرل التزامها العاطفي بليز وعائلة إيفنز، وتعجبت كيف يتحمل مات ضغط مشاكل عشرين عائلة. كانت إيبرل تعتقد غالباً أن إخلاص مات لعمله هو الذي يمنعه من الاهتمام بجدية بأمور حياته الخاصة.. فكما تعلم كانت الصديقة الوحيدة المقربة منه، وكان يمنح حبه لزبائنه ولا يوفر شيئاً لنفسه.

لم تشعر إيبرل بالاهتمام لعمل مات كما كانت دائماً، وهو أمر جعلها تشعر بالانزعاج. وأدركت أن اهتمامها تحول نحو الشخصين الجالسين في زاوية الغرفة.. وهما الآن يتناولان العشاء.. وأعجبت بتعبير وجه غرايغ وهو يتناول الطعام ويصغي إلى حديث ريبيكا.. ولم يعد اهتمامها الشارد إلى ما كان يقوله مات إلا بعد أن سمعته يذكر اسم

ليز.

ـ ليز تتقدم بشكل جيد، وأتمنى لو أستطيع قول نفس الشيء عن أمها.

ـ هل ذهبت لرؤيتها؟

ـ ذهبت إلى المستشفى بالأمس.

ـ أليس هناك أي تغيير؟

نظر مات إلى طبقه:

ـ تغيير إلى الأسوأ.. لم تعرفني.

صاحت:

ـ أوه.. لا! ظننت.. بما أنها خرجت من الغيبوبة..

ـ يقول ممرضو المستشفى إنها لا تتعرف على أحد.. إنها مستلقية في فراشها، لا تتحرك، ولا تتكلم. يقول الأطباء إنهم لا يمكنهم فعل شيء.. إصابة الدماغ شديدة، والضرر فادح.. سينقلونها قريباً إلى قسم الرعاية، وهذا كل شيء.

أحست إيبرل ببرودة تسري في جسمها.. وقالت بصوت مرير:

ـ لقد سلب براد ستاتون حياة زوجته منها، كما لو أنه قتلها.. وانظر إلى ما فعل بحياة ابنته ليز..! ولو أنها أفضل بكثير دونه.

هز مات رأسه موافقاً:

ـ السؤال هو: إلى متى نتوقع منه أن يبقى بعيداً عن حياتها؟

ـ أجل.. فمن الممكن أن يعود إلى البلدة في أي وقت ويكتشف مكان إقامتها.. وأشكر الله أن المسكينة لا تدرك أنها تنتظر مواجهة قنبلة موقوتة.. لن أفهم أبداً لماذا لم يُحل المدعي العام ستاتون إلى المحاكمة.

قال مات:

ـ تعرفين جيداً ماذا قال.. المحاكم لا تضع الناس وراء القضبان

بسبب ما لا يزال يُعرف بالأمور «البيتية الخاصة»، ولنكن منصفين ففي ذلك الوقت لم يكن أحد يدرك مدى خطورة إصابة السيدة ستاتون. كان الأطباء يتوقعون أن تستعيد عافيتها بعد خروجها من الغيبوبة.

ردت بعصبية:

ـ أجل.. استعداداً للمرة القادمة!

هز مات كتفيه استسلاماً:

ـ هكذا هي الأمور.. كل ما نستطيع القيام به هو العمل ضمن حدود القانون.

ـ حتى وإن كان القانون مخطئاً؟

مد مات يده عبر الطاولة يغطي يدها المضمومة بيده.

ـ إيبرل.. حين يخطىء القانون.. وأعترف أنه يخطىء.. يجب أن نعمل على تغييره لا على خرقه.

تمتمت باستسلام:

ـ هذا ما أعتقده.

كان مات على حق بنظريته طبعاً. لكن عملياً هل من العدل المغامرة بحياة طفلة لمجرد إطاعة قانون يرتكز أساسه على تقاليد اجتماعية بالية؟.. مات من أفضل الرجال الذين عرفتهم وهو يحترم السلطة إلى أقصى الدرجات.. ولكنه لا يخرج أبداً من أية معركة حقيقية منتصراً.. وأقسمت إيبرل في نفسها، إن قام والد ليز بتهديد سلامة الطفلة مرة أخرى، فستفعل كل ما بوسعها لردعه سواء كان ذلك ضمن القانون أو لا.

قال مات بربت على يدها:

ـ دعينا لا نتكلم عن هذا.. أنا آسف، كنت مخطئاً في ذكر الموضوع في أمسية من المفترض أن تكون احتفالاً.

حاول أن يضحك، لكنه لم يستطع سوى أن يبتسم ابتسامة

ضعيفة. وهزت إيبرل رأسها.. بالإمكان تغيير الموضوع طبعاً لكنها شعرت بأن الأمسية فسدت لكليهما.

قال مات بلهجة مرحة:

ـ لديهم حلوى رائعة هنا.. دعينا نحتفل بتناول شيء منها..

أجبرت إيبرل ابتسامة على شفتيها:

ـ حسن جداً.. ولمَ لا؟

أحست بعاطفة مفاجئة نحو مات ووخزة خجل لتفكيرها منذ لحظات بأنه غير كفوء في مواجهاته. على الأقل لا يستطيع أحد إنكار اهتمامه بمصلحة ليز من كل قلبه.. إضافة إلى العشرين عائلة.. كانت ابتسامتها دافئة وهي تمد يدها فوق الطاولة تلامس خده بمحبة صادقة.

بينما كان مات يطلب الحلوى، لاحظت إيبرل أن غرايغ وريبيكا نهضا عن طاولتهما، وسارا متجهين إلى حيث تجلس مع مات.. وصلا في الوقت الذي كان النادل يردد طلب مات الذي بدا فجأة لإيبرل أنه حلوى للأطفال، وليس لشخصين راشدين.

لا شك أن الأمر نفسه بدا لريبيكا لأن إيبرل رأت بوضوح نظرة الخبث التي ارتسمت على وجهها.. وحاول مات أن يقف، لكن غرايغ أشار له أن يبقى جالساً ثم قال بطريقة غريبة:

ـ نحن ذاهبان إلى ناد حديث للرقص في آخر الشارع. هل ترغبان في الانضمام إلينا؟

قالت ريبيكا بحيوية:

ـ أوه.. اقبلا.. أرجوكما.. سنلتقي مجموعة أصدقاء هناك وستكون أمسية مرحة.

نظر مات إلى إيبرل.. وقرأ «الرفض» في عينيها.. فرد قائلاً:

ـ أنا آسف، لقد طلبنا الحلوى لتونا، وسنبقى هنا قليلاً بعد. شكراً جزيلاً على أي حال.

صاحت ريبيكا:

ـ الغيا الطلب! فالسكر ليس صحياً لكما.. أنا لا أتناول الحلوى أبداً.

لاحظت إيبرل أن ريبيكا تمايلت بجسمها قليلاً لتجذب الاهتمام إلى نحولها المميز.. وقال غرايغ:

ـ أظن أنهما قادران على اختيار نوع طعامهما بنفسيهما ريبيكا.. سنذهب إذن.

لكن ريبيكا لم تكن معتادة على رفض طلباتها، فتابعت تقول:

ـ حسناً.. أنهيا إذن طعامكما، والحقا بنا.. أرجوكما قولا إنكما ستفعلان.

رأت إيبرل من النظرة البائسة على وجه غرايغ أنه لم يكن المصمم على صحبتهما.. لا.. إنها ريبيكا.. لكن ما هو دافعها يا ترى؟

قالت إيبرل بحزم:

ـ أنا آسفة.. لا أستطيع. كان يومي متعباً، وكذلك مات.. وأخشى أن لا يروق الرقص لأي منا الليلة.

قالت ريبيكا متوددة:

ـ بالطبع.. يجب أن تعذريني آنسة ساوندرز.. نسيت للحظات أن عملك يسبب التعب الجسدي.. لكن يجب أن أعترف أنني خائبة الأمل.. كان أصدقاؤنا سيتسلون كثيراً بالتعرف على سيدة «جنائنية».

علت وجه غرايغ نظرة رفض مصدومة، وأدركت إيبرل أنه لم يكن يعتقد أن ريبيكا ستتمادى في جرأتها وتعلن عن أسباب دعوتها لانضمام إيبرل إلى أصدقائهما..

أحست إيبرل بغضب يعتمر في داخلها ويصل إلى حد الانفجار، نسيت كل شيء علمها إياه إيان هيموشو حول الحفاظ على رباطة الجأش والعدوانية السلبية.. قد لا تستطيع رد الكيل لبراد سناتون، ولا

الرد على ظلم الحياة نفسها.. لكنها بالتأكيد قادرة على إيقاف هذه المرأة المهينة عند حدها.. وكذلك غرايغ بوكستر، الآن، وإلى الأبد!

أجابت بابتسامة باردة واثقة:

ـ آسفة لأنني خيبت أملك آنسة ماونتن.. لكن، إن كان من السهل جداً تسلية أصدقائك، فأقترح أن أمثل لهم دور المهرج.. الأطفال من كل الأعمار يجدون هذا مسلياً جداً.. ولقد شاهد السيد بوكستر هذا العرض في شقتي بعد ظهر الأمس.. ولسوف يؤيدني بأنه دور مسل، أنا واثقة.

ما من طبق حلوى في العالم يمكن مقارنته بطعم حلاوة الانتقام حين شاهدت إيبرل نظرة الحقد السام التي وجهتها ريبيكا ماونتن إلى غرايغ بوكستر، بعد سماعها للرد.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ رجل كان هناك

خلال الأسبوع التالي، قامت إيبرل بإنهاء كل العقود السابقة مع زبائنها وأبدى جميعهم الأسف لفقدانها. وأمضت الأمسيات توضب حاجياتها في صناديق كرتونية. وكان برنس ملازماً لها، يدخل ويخرج من بين ساقيها وهي تعمل، يتفحص كل صندوق مفتوح، بحثاً عن إمكانية وجود حشرة حية. السيدة بوكستر لم تكن تتوقع أن تبدأ إيبرل العمل قبل الاثنين المقبل، ورحبت إيبرل بالأيام الفاصلة كي لا تواجه غرايغ.

خلال عودتها ومات من العشاء ليلة الاثنين الفائت. أبدى الأخير ذهوله للطريقة التي هاجمت فيها ريبيكا ماونتن.

ـ لم أرك من قبل تنفجرين بأحد هكذا.. وهذا ما أظهر لي جانباً جديداً من شخصيتك.

ردت بعنف:

ـ لقد استحقت هذا! إنها المرة الثانية التي ألتقي بها، وأهانتني أربع مرات؟

ـ لكن ما همك أنت بما تظن بك؟

ـ أنا لا أهتم أبداً بظنونها! لكن يصبح الأمر مزعجاً جداً حين لا تستطيع امرأة في مثل سنها أن تقتنع بأن عملي ليس حكراً على جنس معين.. ثم لماذا يجب أن أبقى مذعنة وأسمح لأي شخص بأن يهينني؟

قال مات بلهجة ارتياب:

ـ حسناً.. أعتقد أنك على حق.. لكن مما عرفته عنك، وإذا كنت لا تمانعين قولي هذا، تساءلت ما إذا كنت غيورة منها.

صاحت:

ـ أنا لست غيورة! ما هذه الفكرة السخيفة؟

اختلس مات نظرة جانبية إلى وجهها الغاضب وقال ملاطفاً:

ـ هذا جيد.. لأنني لا أتمنى لأي صديقة لي أن يميل قلبها نحو غرايغ بوكستر. فحسب قول الشائعات، إنه ليس من النوع الذي يتزوج.

ردت إيبرل بفظاظة:

ـ بإمكانك إراحة بالك حول قلبي مات.. لن يهمني أبداً ما إذا كان غرايغ بوكستر يهوى كل نساء كاليفورنيا..

لكنها فكرت في سرها بحزن أن مات لم يعد محقاً في قوله.. قد يكون غرايغ رجلاً عابثاً في الأيام السابقة، لكن أمه أخبرت إيبرل بصراحة أنه يفكر كثيراً بالزواج.. وهي تتذكر عناقه لها يوم الاثنين الماضي.. أحست برعشة.. لكن ذلك العناق لم يكن يعني شيئاً. كان مجرد ردة فعل من رجل اعتاد أن يتذوق رحيق كل زهرة يصادفها. في الواقع لن يستطيع التخلي عن عادته القديمة حتى بعد زواجه من ريبيكا.. إيبرل تعرف أن الكثير من الرجال لا يحترمون قسم زواجهم، وقد يبرهن غرايغ بوكستر أنه واحد من هؤلاء.. أجل.. إنها متأكدة أنها ستكون أفضل حالاً بكثير من دونه.

خلال توضيبها لأغراضها، اكتشفت إيبرل أن الانتقال من سكن إلى آخر هو أفضل وقت للتخلص من الأشياء الغير ضرورية. أخرجت من خزانتها وأدراجها أغراضاً من ثياب قديمة لا تتناسب مع الموضة، ولم ترتدِها منذ سنوات، وهي الآن سترمي كلها.. في الدرج الأسفل،

www.elromancia.com

وجدت الفستان الصيني الطراز الذي أهداه إيان لها يوم حفلة التخرج، والذي اشتراه أثناء رحلته إلى البلدة الصينية في سان فرانسيسكو.. مع أنه كان يعجبها بجنون، إلا أن حياتها البسيطة لم تعطها الفرصة يوماً لارتدائه.. كان مصنوعاً من حرير طبيعي بلون الخوخ، مفصلاً على الطريقة الصينية. فكرت بإيان وهي تعيد لفه بالأوراق بكل حذر، وأملت أنه سيوافق على هذا التغيير في حياتها.

حين استيقظت إيبرل صباح السبت.. أحست بارتياح لرؤية الطقس جافاً وبارداً، طقس ممتاز للانتقال. وصل مات في الثامنة، ومعه شاحنة صغيرة استعارها من صديق له. وسارعت تساعد مات على حمل ما تستطيع من أغراض: عدة مصابيح، جهاز الستيريو، وخزانة من خشب الجوز، ماكنة الخياطة، التلفزيون، وكرسي هزاز أثري جميل كان لأمها، وكانت تهدهدها فيه وهي طفلة. وضبت معظم الأغراض في صناديق، وفي وقت مبكر من الظهر كانت جميعها محمولة في الشاحنة.. وأمن مات مظلة الشاحنة، ثم عاد إلى الشقة الفارغة ليساعد إيبرل على تنظيفها.. نظرت إيبرل إلى الفراغ حولها، وأحست بالدموع تلسع عينيها. مسحتها، وتقدمت نحو الجدار الزجاجي تستند إليه وتنظر إلى حديقتها الصغيرة الغالية.

تقدم مات خلفها ووضع ذراعه حول كتفيها:

ـ كنت سعيدة هنا.. أليس كذلك؟

تنهدت:

ـ كان المكان الأول الذي اعتبرته ملكاً لي.. وهذه الحديقة هي آخر صلة بي مع إيان.

وبخها بلطف:

ـ والآن إيبرل..! ستبقين دائماً على صلة بإيان طالما أنه موجود في أفكارك.. التغيير صعب دائماً.. حتى وإن كان تغييراً مفيداً..

أليس كذلك؟

هزت رأسها دون كلام واستدارت تبتسم له دامعة. أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت:

ـ حسن جداً يا صديقي.. هيا بنا إليهم! آل بوكستر احذروا.. ها قد جاءتكم إيبرل ساوندرز!

ضحكا معاً ثم لاحقا برنس المتردد فجأة، وحشراه أخيراً في زاوية المطبخ.. وبينما كان مات يقفل النوافذ والأبواب راحت إيبرل تدخل القط في صندوقه الكرتوني الكريه عليه ووضعته وسط مقعد الشاحنة.. ثم سلمت المفاتيح إلى السيد واتسون وودعته، وما هي إلا لحظات حتى كانا منطلقين عبر شوارع المدينة نحو الطريق العريضة التي تقود إلى حياة إيبرل الجديدة.

بعد حوالي النصف ساعة أبطأ مات سرعته كثيراً ليتجه نحو الطريق الريفي الوعر الموصل إلى أملاك بوكستر.. وأشارت إيبرل إلى اللوحة المخفية عن الأنظار، فوجه مات الشاحنة إلى الطريق الداخلية الكثيرة الحفر.. وحين وصلا فسحة إيقاف السيارات، صفّر إعجاباً بموقع المنزل.

ترك مات الشاحنة تتهادى على مهل وراح يتفحص حوله ما يمكن أن يراه من الخمسة فدادين.. ثم قال ممازحاً:

ـ مساحة هائلة إيبرل، ألا تظنين أنك قضمت لقمة أكبر من أن تستطيعي مضغها؟

كانت الأراضي فعلاً أكبر مما بدت لها يوم الأحد الماضي، وقالت تكشر وجهها قلقاً:

ـ أرجو أن لا.. على أي حال، سأبذل قصارى جهدي.

طلبت من مات أن ينتظرها، ونزلت تسير عبر المرجة إلى الباب الأمامي، آملة أن لا تكون السيدة أغريبا موجودة.. لكنها لم تكن

محظوظة.. فقد انفتح الباب بعد لحظات من قرعها للجرس، ووقفت مدبرة المنزل هناك بعبوسها الذي أصبح مألوفاً.

أشارت إيبرل نحو الشاحنة:

ـ لقد جئت بأغراضي سيدة أغريبا.. وأتساءل ما إذا كان بالإمكان أن تمر السيارة فوق المرج لتصبح بالقرب من منزل البركة؟

قالت المرأة:

ـ لن تفعلي لو كان الأمر يعود إلي..

وأدارت لإيبرل ظهرها لتختفي في الداخل.. فراحت إيبرل تتساءل ماذا تفعل.. هل الرد «لا» إذن؟ أم أنها تركت الباب مفتوحاً لها وذهبت لتستشير السيدة بوكستر؟ لم تدم حيرتها طويلاً إذ سرعان ما وصلت السيدة بوكستر بابتسامة مرحبة على وجهها اللطيف.

ـ أنت هنا عزيزتي! على الموعد تماماً.. كل شيء يسير على ما يرام وهذا بشير جيد.. وأنا واثقة أن عملنا سينجح.. والآن أخبرتني أغريبا أنك ترغبين في مرور الشاحنة فوق المرج، وأظن هذه فكرة معقولة.. فلا شيء يمكنه أن يسيء إلى منظره أكثر مما هو سيء الآن.

شكرتها إيبرل، ثم عادت لتوجه مات حول حافة المرج حيث لا يؤثر ثقل الشاحنة عليها كثيراً.. كان المرج رهيباً فعلاً.. لكن ما من داع للمخاطرة بأن تعلق إطارات الشاحنة في التراب اللزج.

كانت أولى المهمات إطلاق سراح برنس من صندوقه. ثم أمضت إيبرل ومات الساعات التالية يفرغان الشاحنة ويضعان الصناديق في الغرف، بانتظار ترتيبها فيما بعد.

كانت غرفة النوم مفروشة بسرير مزدوج.. وقرب أحد الجدران طاولة ثابتة للزينة، وخزانة أدراج مثلها بحيث لا يستلزم الأمر استخدام خزانة أخرى. كان جدار آخر بأكمله من الزجاج، يطل على الأراضي التي توصل إلى النهر.. كانت الستائر العاجية الدافئة الملونة بخيوط

رمادية وبيج مكملة للسجادة الرمادية السميكة.. وفي هذه الغرفة، وضعت إيبرل كرسي أمها الهزاز وأحد المصابيح.. ما إن شاهد برنس الكرسي حتى وثب إليه وتكور فيه بارتياح ظاهر ليأخذ قيلولته.

كانت إيبرل ومات، بحلول الساعة الرابعة، يتضوران جوعاً، بعد أن أتما إفراغ الشاحنة تماماً. خاطبته إيبرل:

ـ سأفرغ هذه الصناديق فيما بعد مات.. والآن استرح، بينما أحضّر شيئاً نأكله.

لحظات، ووجد مات نفسه مسترخياً على أريكة مريحة في غرفة الجلوس، وفي يده كوب من العصير البارد.. ودخلت إيبرل إلى المطبخ لتنظر حولها، مبتهجة به كطفلة أهديت لعبة بيت. وبعد قليل كانت المائدة جاهزة.. ونادت مات الذي أعلن أنها ساحرة، وجلس ليأكل بشهية كبيرة.

بعد أن تناول حصته وأكمل على نصف حصتها، استرخى في كرسيه متنهداً:

ـ هذه وجبة أفضل من التي تناولناها في «أولد ساكرمنتو».

لوحت إيبرل بيدها تصرف النظر عن مديحه، وقالت:

ـ الجوع أمهر الطباخين.

تمدد مات ووقف ليذهب إلى غرفة الجلوس:

ـ إنه مكان دافىء وحميم إيبرل.. كل ما يلزمك لتجعليه مكتملاً هو إشعال نار في المدفئة.

كان الظلام قد حل، والمطر ينهمر في الخارج ووافقت إيبرل على أن النار مناسبة جداً.

ـ أظن أنني رأيت بعض الحطب خارج المنزل.

ما هي سوى دقيقة حتى أحضر مات ثلاث حطبات، واستخدم جريدة وولاعة ليشعل ناراً بهيجة في المدفئة ذات الحجر الأبيض.

ـ والآن، أريدك أن تُعدي لنفسك فنجان قهوة وتسترخي هنا قبل موعد النوم.

ووقف متحضراً للخروج.

حاولت إيبرل إقناعه بالبقاء للتمتع بالنار وشرب القهوة معها، لكنه امتنع قائلاً:

ـ لا.. يجب أن أستيقظ في الغد باكراً..

رافقته إلى الشاحنة تلف ذراعيها حولها بسبب برودة الهواء.. وقفا قرب باب الشاحنة المفتوح وأحست إيبرل باندفاع عاطفي غامر وعرفان بالجميل نحو صديق عزيز، منحها دون تذمر يوم راحته من العمل.. لفت ذراعيها حول عنقه:

ـ كنت دائماً طيباً معي مات.. ولا أستطيع أن أعبر لك عن امتناني..

وضع ذراعاه حول خصرها وحضنها، ثم همس في أذنها بصوته الخجول:

ـ أنا محظوظ بوجود صديقة عزيزة مثلك.

حين أدار محرك السيارة، وانطلق نحو الطريق الداخلية للمنزل، استدارت إيبرل نحو منزلها.. وهناك لمحت طيفاً لرجل يقف بالباب.. الضوء الخافت يخفي قسماته.. صدرت عنها شهقة حادّة، فتقدم منها الرجل سريعاً، ووجدت أنه غرايغ.. فصاحت:

ـ لقد أخفتني حتى الموت! أتمنى من السماء لو تعلن عن وجودك ولو لمرة بدلاً من التسلل هكذا!

قال بتشدق ساخراً:

ـ آسف.. لم أرغب بمقاطعة منظر فراق الأحبة الرقيق.

إذن لقد رآها تعانق مات، واستخلص النتائج بنفسه.. حسن جداً، ربما أقنعه هذا أن يتركها وشأنها إذا ظن بأنها ملك لرجل آخر..

هكذا، ودون إنكار لظنونه، قالت:

ـ أعتقد أن لديك سبباً دفعك للمجيء إلى هنا.. لذا الأفضل أن تدخل لأقفل الباب.

ـ هذا إن كان لديك لحظات توفرينها لي.

في الداخل، نظر غرايغ حوله، ولاحظ النار الخفيفة ثم سار نحو المطبخ حيث شاهد بقايا الوجبة، وقال معلقاً:

ـ أحد أسباب مجيئي هو أن أستعلم إن كنت بحاجة إلى مساعدة. لكنني أرى الآن أن عرضي سيكون غير ضروري.. وكان يجب أن أدرك أن امرأة مثلك سيكون لها.. أوه.. مصادر أخرى.

ـ أجل.. لدي مصادر أخرى. والآن بما أنك هنا هل لي أن أعرض عليك شراباً؟ هناك عصير، قهوة، أو شاي. وهذا كل شيء كما أخشى.

مدد غرايغ جسمه النحيل الرشيق البارز العضلات فوق الأريكة، حيث أخذت ألسنة النار تنعكس على شعره البني متحولة إلى وهج نحاسي قاتم.. نظر إليها بابتسامة على شفتيه القاسيتين:

ـ أي شيء تقدمينه سيكون جيداً.

وهي تعود إلى المطبخ لتسخن القهوة، كانت تعي تماماً ذلك الانقباض المثير والمقلق معاً في قلبها، والذي تشعر به في كل مرة تكون فيها في حضرة ذلك الرجل. بعد أن سخنت القهوة، وضعت فنجانين فوق صينية يابانية خشبية وحملتها إلى غرفة الجلوس.. حيث انحنت لتضعها على الطاولة الصغيرة الموضوعة أمام الأريكة.. وهي تستقيم وقف غرايغ فجأة ليمسك معصمها بيده.. قال وهو يسحبها حول الطاولة ويجلسها إلى الأريكة بجانبه:

ـ اجلسي هنا حيث تدفئك النار.

لكنها نهضت بسرعة لتجلس في الطرف الآخر منها.

سألها بابتسامة العارف:

ـ هل أحمل شيئاً معدياً؟

ردت بابتسامة أكثر برودة:

ـ لا شيء لست منيعة ضده..

رفع حاجبه:

ـ آه.. ذلك اللسان اللاذع مرة أخرى.. أتعلمين؟ كان يجب أن أحذر ريبيكا فعلاً من أنك لست ممن يمكن العبث معه.

ـ أجل.. ربما كان يجب عليك أن تحذرها.. ومن الأفضل أن تتذكر هذا بنفسك.

خبا اللمعان الدافىء في عينيه لكلامها ورد:

ـ أجل.. تأكدي أنني سأفعل.

خلال الفترة القصيرة التي شرب فيها القهوة، تبادلا حديثاً قصيراً سطحياً. وارتاحت إيبرل لعدم اضطرارها للمواجهة معه، فحضوره لا يشل دماغها فقط بل إنها كذلك مرهقة من يوم عمل طويل ولا ثقة لها بقدرتها العاطفية على مقاومته.. سلامتها الوحيدة تكمن في أن تتصرف بحذر كي لا يدرك الأمر!

أعاد غرايغ فنجانه الفارغ، ووقف استعداداً للرحيل.

ـ السبب الآخر لحضوري هو إيصال دعوة لك من أمي، تريدك أن تتناولي الغداء معها في الغد بعد أن تنهي عملك.. قالت إنه لا يجب أن ترهقي نفسك بإعداد الطعام بعد إفراغ أغراضك طوال اليوم.

تأثرت إيبرل وابتسمت لغرايغ:

ـ هذا لطف من أمك وأنا ممتنة جداً لهذه الدعوة، لكنني لن أقوم بتوضيب أغراضي في الغد.. أتذكر الفتاة الصغيرة التي التقيتها في شقتي؟ لقد وعدتها أن آخذها إلى «سوترفورت» غداً إذا كان الطقس جيداً.. فإذا لم أستطع رؤية السيدة بوكستر بنفسي فأرجو أن تبلغها

شكري وأسفي.

ـ طبعاً سأفعل.

وأكمل طريقه نحو الباب، ثم سأل:

ـ هل تقضين كل أيام الآحاد معها؟ ليز، أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ ألا يعترض صديقك مات على حرمانه من صحبتك يوم الأحد؟

نسيت للحظة أن غرايغ فهم الصورة الخاطئة وردت بحدة: بالطبع لا.

لكنها أضافت بلهجة أكثر نعومة:

ـ أحياناً نخرج بها معاً.

وأصرّ غرايغ قائلاً:

ـ على أي حال، أعتقد أنه لن يرافقك في الغد؟

ـ لا.. فهو ذاهب للتزلج مع أصحابه.

وكانت بهذا تقصد أن تعطي سبباً لعدم مرافقة «حبيبها» لها في الغد.. لكن نظرة الشك على وجه غرايغ الوسيم قالت لها إن رجلاً يذهب للتزلج مع أصدقائه، بدلاً من قضاء معظم وقته مع «حبيبته» أمر يدعو إلى الشك.. يا لها من متاهة أدخلت نفسها فيها! سارت معه نحو الباب في محاولة منها لاستعادة السيطرة التي فقدتها وطلبت منه مرة أخرى أن يشكر أمه على لطفها.. قالت وهي تفتح الباب له:

ـ وشكراً لك أيضاً.. لسؤالك إن كنت أحتاج إلى مساعدة.

استدار ينظر متفرساً في عينيها.. وبلهجة نادمة لم تفهم إيبرل سببها، قال:

ـ أنا آسف لأن مساعدتي ليست مطلوبة.

وسمّرتها عيناه، حتى أنها لم تتحرك حين مد يده يلوي خصلة شعر بين أصابعه.. ثم أمسك مؤخرة رأسها في راحة يده وقرب وجهها

منه.. ليضع رأسها على كتفه.. وبقيت راضية بالعناق، للحظات، تقف ما بين النار الذهبية الحمراء المغرية، وهواء الليل البارد الرطب.. ولم تتلاشَ اللحظة السحرية، إلا بعد أن تسللت يده من رأسها إلى مؤخرة عنقها فاستفاقت من البئر العميق لتجاوبها مع هذا الرجل. وانفتحت عيناها بتركيز وهي تدفعه في صدره بكل القوة التي استطاعتها ذراعاها، قالت شاهقة:

ـ حقاً سيد بوكستر! ظننتك فهمت أنني.. أن مات وأنا.. كم تنسى بسرعة أنني لست من النوع الذي يقبل بالعبث!

رد بأدب جاف:

ـ بالعكس آنسة ساوندرز.. أنا أحترم علاقتك هذه.. وهذا العناق ليس سوى إشارة لصداقة، ويعني فقط الترحيب بك في فريق عمل بوكستر.. وكم أنت قاسية لتسميه عبثاً.

ثم، بابتسامة ماكرة، وتلويحة مرحة، خرج إلى الظلام والليل المبتل.

كان اليوم التالي مشمساً ورائعاً، وشعرت إيبرل بالإرتياح لأن الطقس لن يمنع ليز من القيام بإحدى نزهاتها المفضلة إلى الحصن الذي يعود تاريخه إلى أكثر من مئة وخمسين سنة..

كانت الساعة قد تجاوزت الظهر حين كانت إيبرل تلحق بليز فوق المروج الغنية بالعشب والمزدانة بالأشجار، ثم عبر الأبواب الضخمة المرتفعة إلى داخل الحصن. كانت تذاكر الدخول تباع في الداخل، وراحت ليز، التي ارتدت جينزاً وقميصاً بمربعات حمراء وبيضاء وسترة من الجينز، تقفز بنفاد صبر، بينما إيبرل تدفع رسم الدخول البسيط..

في أحد نهايات المساحة المستطيلة، مبنى مؤلف من طابقين، من حجر الطين كذلك، يحتوي غرف الاستقبال ومكتب «ساتر» وجناح السكن.. لكن الغرف العديدة جداً على طول جدار الحصن الداخلي،

والتي تنفتح كلها على باحة مشتركة معشوشبة، هي التي تسحر ليز.

وبدأت زيارتها المعتادة لجميع الغرف الصغيرة التاريخية، أيام كانت تمارس المهن اليدوية ببراعة وأهمية في تلك الأيام الخشنة.. كان هناك دكان الحداد، النجار، صانع البراميل، دكان أسرجة، غرفة نسيج، مصنع شمع حيث يحول شحم النيران إلى شموع وهي المصدر الرئيسي للنور في الحصن ليلاً.. وبالطبع دكان صانع الأسلحة.. بعد أن شاهدت ليز كل هذا، بالإضافة إلى دكان صانع القبعات والأحذية، والمخزن التجاري أيضاً، أخذت تشد إيبرل من يدها نحو غرفة كانت الأخيرة تتمنى في كل مرة، وبحرارة، أن تتجاهلها.

كان هناك غرفة خفية صغيرة سوداء لها باب منخفض جداً لا يستطيع سوى طفل أن يمر به دون انخفاض.. من هذه الغرفة القاتمة، كان المرء ينزل ثلاث درجات حجرية منزلقة بخطورة إلى غرفة أصغر وأكثر عتمة بمدخل واحد.. كانت هذه سجن الحصن. كانت الغرفة خالية تقريباً ما عدا مدّ خشبي فيها وتمثال من الشمع لسجين مكور في زاوية الزنزانة يكاد يظهر حياً. مظهره كمظهر المنبوذ الكامل.

وكما تفعل في كل زيارة، وقفت ليز مسمّرة تنظر إلى الغرفة.. في هذه الأوقات، كان قلب إيبرل يصبح مثقلاً..

قالت ليز وكأنها تكلم نفسها:

ـ كانوا يضعون الأشرار هنا.. ربما سرق مال أحدهم أو جواده، ربما كان مشاكساً وافتعل عراكاً.

ـ ربما يكون هذا هو السبب عزيزتي.

كانا قد تعرضا لمثل هذا الموقف العديد من المرات لدرجة أن إيبرل أصبحت تدرك بأن ليز لا تظن التمثال حقيقياً حتى وإن كانت تتكلم وكأنه حي.

قطبت ليز:

ـ هذا الرجل على الأرجح ضرب زوجته، ولهذا وضعوه هنا.. وضرب ابنته الصغيرة أيضاً. أتظنين أنهما لا زالتا تحبانه إيبرل رغم أنه كان شريراً وهو الآن في السجن؟

وأدارت عينين زرقاوين واسعتين نحو إيبرل.

ماذا يمكن لإيبرل أن تقول؟ كيف يمكنها الإجابة لتنتشل الطفلة من محنتها المؤلمة؟ أرادت أن تبعد الطفلة عن المكان، لكن وبناء على تعليمات مات بترك الفتاة تعبر عن مشاعرها ومخاوفها المكبوتة متى وأينما أحست بالحاجة، قالت:

ـ لست أدري حبيبتي.. ما رأيك أنت؟

تنهدت ليز:

ـ أعتقد أن الأم والفتاة الصغيرة حزينتان على الرجل لأنه وحيد الآن.. لكنهما لا تستطيعان أن تحباه مجدداً، وستنتقلان للعيش بعيداً كي لا يجدهما.

كانت شمس الشتاء الخفيفة أكثر حدة، مقارنة مع عتمة الغرفة المقبضة للنفس، وأغمضت إيبرل عينيها وانتظرت إلى أن اعتادتا النور.. ثم شعرت بليز تشد سترتها وتهمس:

ـ انظري! ذلك هو الرجل الذي أحب بسكويتنا.

قبل أن يراهما، تمتعت إيبرل بالتطلع إلى جسد غرايغ الطويل الرشيق المستند إلى شجرة السنديان، في نهاية الباحة المشتركة.. يداه مسترخيتان في جيبي سترته الصوفية، بينما عيناه تجوبان الساحة بحثاً عن شخص ما.. عن إيبرل؟ على المرء أن يعترف أنه بكل تأكيد ملحّ في ملاحقاته.. صحيح أنها انزعجت لكنها أحست بالزهو أيضاً.

ـ ها أنتما!

وقطع المسافة بخطوات واسعة:

ـ أفضل صانعة بسكويت في ساكرامنتو.

وانحنى إلى مستوى الطفلة يبتسم لها:

ـ سمعت أنك ستكونين هنا اليوم فأردت أن أدعوك إلى الغداء.. وها أنذا!

رفع عينيه إلى وجه إيبرل، وقال وكأنما بعد تفكير:

ـ أوه.. مرحباً «حمراء» وأنت مدعوة أيضاً.. بالطبع.

من يظن أنه يخدع؟ لقد حسبت ليلة أمس حين افترض وجود علاقة حب بينها وبين مات، أنه سيضعها خارج ملاحقاته.. لكن من الواضح أن هذا لم يعن له شيئاً.. فهو لا يتأثر إن كانت مشاعرها ليست ملكاً له أو إن كان يتعدى على حق رجل آخر.. فكرت بكل هذا ساخطة. والآن هاهو، لا زال يلاحقها، لكن هذه المرة يستغل طفلة بريئة! ماذا تريد أكثر من هذا ليثبت لها أن غرايغ ليس سوى «دون جواناً» عادياً؟

نظرت ليز نحو إيبرل متوهجة بالإثارة، يملأ عينيها الزرقاوين رجاء بأن تقبل دعوة الرجل.. بابتسامة خبيثة، قالت إيبرل:

ـ إذا كنت تريدين تناول الغداء مع السيد بوكستر، فبالطبع سنقبل دعوته بكل سرور.

أدارت وجهها بابتسامة وقحة صوب غرايغ وأضافت:

ـ لكن، أولاً، أنا واثقة أنه سيحب أن تصطحبيه داخل الحصن.. أتصور أنه مر عليه زمن طويل منذ زيارته الأخيرة للمكان. لماذا لا تتمشيان سوية وسأجلس تحت الشجرة بانتظاركما؟

لم يدع غرايغ الصغيرة تشعر بأن الجولة في الحصن لم تكن تحلو له. لكن عبر ابتسامة خفيفة جافة اعترف لإيبرل أنها كسبت نصراً جديداً.. ونظرت ليز إلى إيبرل بمزيج من الابتهاج والخوف.. ثم بطريقتها المضحكة التي تشبه طريقة الكبار، بدأت تقول لغرايغ رأيها في السرد المسجل لتاريخ الحصن.. ورمى غرايغ تحية مرحة نحو إيبرل، ثم قفز برشيّ خلف الفتاة.

جلست إيبرل تنتظر.. بينما كانت تراقب الزوار بكسل، يسيرون حول المكان، خطر ببالها أنها، بالرغم من عجرفة غرايغ بوكستر، وتصرفاته غير اللائقة، وعبثه، فهي تشعر نحوه بشيء من الثقة مما جعلها تترك ليز في عهدته..

لم تمض ربع ساعة، حتى لمحتهما يتقدمان من البوابة. اختار غرايغ مطعماً صغيراً قريباً من الحصن متخصص بتقديم الفطائر المحلاة، والسندويشات الخفيفة، والآيس كريم الفاخر. سرّ إيبرل أن تلاحظ بأن الصغيرة كانت في أحسن تصرف لها، تجلس على مقعد جميل قديم الطراز وبداها مضمومتان في حجرها.

خلال الطعام، وجّه غرايغ كل اهتمامه إلى ليز، وهذا ما فتن إيبرل.. لكن، وفي الوقت ذاته، جعلها تشعر أن لا لزوم لها. أخيراً وبعد انتهاء الوجبة قال غرايغ بعفوية:

ـ على فكرة «حمراء» لقد وعدت أن أصطحب ليز إلى كولوما لرؤية المكان الذي وجد فيه الذهب بالضبط، وأخبرتني أنها تريد منك أن تأتي معنا.

قالت ليز متأثرة بتصرف غرايغ اللطيف طوال بعد الظهر بجرأة لم تعهدها أمام الرجال:

ـ لماذا تسمي إيبرل بالحمراء؟ هذا ليس اسماً جميلاً.

ـ أظنك على حق أيتها الصغيرة.. وأوافقك على أن اسم إيبرل أجمل بكثير من الحمراء.

ساد صمت غير مريح بين الثلاثة، وراحت ليز تنقل نظرها من أحدهما إلى الآخر.. تشعر أن هناك شيئاً خاطئاً. لو أن رغبات إيبرل هي كل ما يهم، فلا شيء يسعدها أكثر من أن تسمع ما سماها به من بين شفتيه.. لكن الاسم المستعار أمر حميم.. ولا يتناقله سوى المقربون.. وهذا الرجل ليس مقرباً لها، ولن يكون أبداً.. وهي لن

تجني سوى تحطيم القلب إن سمحت له بشيء من الحميمية.

راحت تشغل نفسها بأخذ حقيبتها وسترة ليز، ثم قالت بصوت ودي متباعد:

ـ لماذا لا تناديني إيبرل؟ على أي حال هو اسمي ويعجبني.

وصلوا إلى الشارع، فتمتمت ليز بخجل شاكرة دعوته، وبدوره ابتسم لها بدفء وانحنى لتقبيلها.. لكن تصرفه مع إيبرل كان مختلفاً.. قال بلهجة باردة:

ـ إذا أحببت، يمكننا توصيل ليز في سيارتي ثم نعود معاً إلى المنزل، وفي الغد أرسل من يأخذ سيارتك.

كم أن صحبته مرهقة للأعصاب، لم تدرك أبداً من قبل إمكانية أن تتشوش عواطفها لوجود رجل:

ـ شكراً لك لمنحك ليز هذه الدعوة الجميلة، لكنني أعتقد أنه من الأفضل أن نودع بعضنا الآن.

رد بصوت قاس متوتر:

ـ هكذا إذن.. أؤيد اختيارك الجيد.. قودي بحذر إذن.. إيبرل.. ربما نلتقي بين وقت وآخر.

صعد في سيارته وانطلق بها مسرعاً، فقالت إيبرل متنهدة:

ـ حسناً.. إذا كانت هذه طريقة قيادته، فأنا مسرورة لأنني لم أسمح له بتوصيلك!

طوت ليز قبضتها الصغيرة في يد إيبرل:

ـ أظنك جرحت مشاعره.

وقفنا معاً في الشارع المظلم، وراقبنا بصمت السيارة القوية وهي تختفي بسرعة لكن ليس نحو الطريق الرئيسية التي تعود إلى الأملاك.. بل باتجاه قلب المدينة.

***

٦ ـ مجرد خدمة أخرى

مع أوائل شهر آذار (مارس)، كانت إيبرل قد انطلقت لإعادة الأراضي إلى ما يجب أن تكون عليه، مع أن الكثير لا زال بحاجة إلى الجهد.. أزيلت الأعشاب الضارة من المرجة الأمامية، ورشت بمبيد لمنعها من النمو مجدداً. كانت دغلة الورود تزدان بالأوراق الحمراء الجديدة في نموها الجديد.. هذا بالإضافة إلى الأعشاب المعطرة، التي زرعت إلى جانب باب المطبخ، وأشجار التوت البري عند إحدى الشرفات خلف المنزل، وقد أصبحت مليئة بالثمر الأخضر الفج.

لم تشاهد غرايغ كثيراً منذ يوم زيارة الحصن.. وكان يجب أن تكون مسرورة لهذا، فشرطها أن لا تحتك به، لكن بالرغم من رغبتها هذه، فقد أحزنتها رؤيته يدخل ويخرج دون كلام معها سوى تلويحة يد من بعيد.

في إحدى الأمسيات المنعشة، وبعد أن أخذت إيبرل دوشاً، بعد يوم من العمل المرهق في إزالة الأعشاب الضارة والأغصان الميتة.. وقفت أمام المرآة تمشط شعرها الكثيف ولاحظت أن شمس الربيع بدأت تلوّن بشرتها بلون العسل. استجابة إلى رقة الأمسية الربيعية الهادئة، اختارت إيبرل من خزانتها بيجاما من الحرير اللافندري اللون.. من النوع المثير الذي يلفت النظر، لكنها كانت مريحة بقدر ما هي مغرية.

في طريقها إلى المطبخ، فتحت بابها الأمامي، فمن الأفضل لها التمتع بالروائح المعطرة المحملة مع هواء المساء.. أضافت إلى لحم الحمل المسلوق فنجاناً من اللوبيا الطازجة، المقطوفة من مسكبة خضارها الصغيرة خلف المنزل، حركته ووضعته مجدداً فوق النار.. لم يعد ينقصها سوى سلطة خضراء من أوراق الخس، والفجل، والبصل الأخضر، وهي كذلك من حديقتها الصغيرة، بالإضافة إلى الخبز والزبدة، وهكذا تكتمل وجبتها.

دخلت غرفة جلوسها لتضع شريطاً موسيقياً في جهاز الستيريو ومع أول انسياب ألحان البيانو سمعت صوتاً اشتاقت إليه كثيراً، يقول من أمام الباب:

ـ لقد تبعت أنفي، وانظري إلى أين أوصلني.

تسارعت دقات قلبها وهي تستدير لترى غرايغ يستند على الباب الحاجب للحشرات، والابتسامة تعلو وجهه الأسمر.. وقفت جامدة في مكانها تحدق به متسعة العينين.. فأكمل:

ـ هل لي أن أدخل؟ أم أنني أقاطعك عن عشائك؟

عادت إلى الحياة، وتذكرت أخلاقها الحسنة:

ـ أوه.. لا.. أدخل..

على أي حال، يُعد هذا الرجل الثاني بعد ربة عملها.. وربما لديه رسالة من أمه.. لكن لا.. لا يبدو عليه هذا، فقد دخل إلى وسط الغرفة بطريقته الواثقة، ونظر إليها بتكاسل من الرأس حتى القدمين، دون أن يفوته أي من التفاصيل.. أحست إيبرل بقشعريرة تجتاح جسدها وشكرت الصدف التي جعلتها مرتدية لأول مرة شيئاً غير ثياب العمل.. إنها لا تريد أبداً أن تجذبه، لكن ما من امرأة تحب أن تبدو دائماً مشعثة.

قال بلهجة تساؤل:

ـ أعدك أن لا أطيل البقاء.. فأنا واثق أن السيد مورهيد لن تعجبه رؤيتي هنا حين يصل.

ـ أوه.. لن يمانع.

ثم تذكرت أنها قادت غرايغ إلى الاعتقاد أن علاقتها بمات ستدفعه فعلاً إلى الممانعة، فأكملت:

ـ أعني أنه لن يعرف.. فهو لن يأتي..

لكن هذا أسوأ بكثير! إذ ظهرت نظرة خبث في عينيه! ولكي تصرف أفكارها المشوشة بعيداً وتشغل نفسها عن نظرات غرايغ المتفحصة، انحنت لتلتقط برنس وترفعه بين يديها.

قال:

ـ إذن أنت لوحدك الليلة.

ثم بابتسامة ماكرة، سرد شعراً:

ـ «كثير من الزهور يحترق احمراراً، دون أن يراها أحد.. ويضيع عطرها الجميل في هواء الصحراء» ما عدا إيبرل ساوندرز، لو استطعت أن أمنع هذا.. والواقع، إنني لم أتناول عشائي بعد.

يا له من جريء! فكرت بإعجاب.. وبماذا يمكن لفتاة محترمة أن ترد على مثل هذه الدعوة سوى:

ـ أرحب ببقائك.. كما أعتقد. إذا كنت لا تمانع في تناول «حواضر البيت».

قال بابتسامة رضى لنجاحه في مناورتها:

ـ مع هذه الرائحة الشهية، أعتقد أن أياً كان يمكنه الإحساس بالأمان مع «حواضر بيتك».

قالت بجفاء:

ـ الأفضل أن تؤجل إطراءك إلى أن تأكل..

مع أنها تعرف أن طهوها جيد وتفتخر به، لكنها لا تزعج نفسها

بالطهو كل ليلة لنفسها فقط. طهوها الآن مثله مثل بيجامتها، مجرد صدفة.. كان بالإمكان أن تقرر تناول عشاء مؤلف من علبة «تونا» أو أن تكون مرتدية روب الحمام القديم الباهت. لكن الوضع اختلف اليوم.. حتى أن هناك كمية من معجنات الجبن الدسمة المليئة بالزبدة في البراد قدمتها لغرايغ مع القهوة بعد العشاء.. بعد أن التهم آخر قطعة، ابتسم لها، مع نظرة تقييم في عينيه:

ـ أنت بالفعل امرأة متعددة الأدوار. ألست هكذا؟ ما من أحد يستطيع أن يقول عنك إنك مجرد وجه جميل.

رفعت عينيها متعجبة لهذا المديح.. هل هناك في كلامه مقارنة خفية مع ريبيكا؟ إذا كان صحيحاً.. فمن وجهة نظر مَن؟ ليس وجهة نظره بالتأكيد، ولا وجهة نظر أغريبا! ربما السيدة بوكستر؟ أجل.. لا بد هذا.. أو الأكثر احتمالاً.. ليس هناك أي مقارنة أبداً.. فلا شيء مثل الأماني تستخلص المعاني التي تكون في الأصل سراباً!

انتقلا بعد العشاء إلى غرفة الجلوس، وأحست إيبرل بالاسترخاء لوجوده.. وسألها ما إذا كان يستطيع إشعال نار صغيرة لكسر حدة برد أمسية الربيع هذه. وهو يقوم بهذا، اختارت تسجيلاً لموسيقى ناعمة ووضعته في الستيريو.

جلست على الأريكة تراقبه وهو ينحني ليرتب الحطب في الموقد.. سمعت صوتاً صغيراً محذراً، يهمس في أذنها، محذراً أنها قد تضع نفسها في ورطة لا تحمد نتائجها.

في الحقيقة، إيبرل فتاة محافظة، وتنوي البقاء هكذا.. كل ما تتذكره، هو أن مشاعر هذا الرجل أنانية عابثة.. وكيف يمكن أن تنسى؟ إذن، أين يكمن الخطر؟ إنها قادرة بالتأكيد على الاستمتاع بأمسية لطيفة مع رجل جذاب دون التفكير بأنها ستقع في فخ الغواية. وتستطيع قول «لا» الآن لهذا الرجل في الوقت المناسب.. لكن الفتاة المحتشمة في

داخلها راحت تتوسلها: على الأقل اتركي الأريكة واجلسي على كرسي!

نهضت لتستبدل جلستها على مقعد آخر بمواجهة الأريكة، في الوقت نفسه الذي كان فيه غرايغ ينهض من ركوعه ويستدير ليواجهها مبتسماً.

ـ الآن، وقد تكرمت عليّ بعشاء رائع.. أريد أن أطلب منك معروفاً آخر.

ردت مجفلة:

ـ أوه!

ـ سأسافر إلى المكسيك غداً من أجل تقديم عرض لمشروع بناء سد. إنه مشروع ضخم وسيؤمن الكهرباء إلى منطقة واسعة لم تنعم بها مسبقاً.. والرجل المفترض به أن يكون مسؤولاً عن هذا في شركتنا مريض الآن، وفي المستشفى.

ـ فهمت.

لكنها في الواقع لم تفهم أبداً ما دخلها في كل هذا.

ـ وبما أنني سأغيب أسبوعاً أو أكثر، فسأشعر بارتياح أكبر إذا لم تبقَ أمي والسيدة أغريبا وحيدتين في المنزل.. فهل بإمكانك السكن معهما أثناء غيبتي؟

لم تتردد إيبرل، بل كانت مسرورة جداً بأن تقيم مع السيدة بوكستر، والتي أصبحت مولعة بها خلال الأسابيع التي عملت لديها.

ـ بالطبع.. إذا كان هذا يرضيها..

ابتسم:

ـ بالنسبة لها، لقد قررت أن تدعوك لتناول وجبات المساء معها لمجرد التمتع بصحبتك. إنها تحبك كثيراً.. لكن سيكون الأمر أكثر إفادة.. لو.. أنك انتقلت للإقامة معها.

احتارت إيبرل:

ـ لكن كيف يمكن أن أبرر انتقالي للسكن هناك؟

ـ إنها لا تعلم أنني سأطلب منك السكن معها للأمان، إلا أنها تعتقد أن هذا غير ضروري.. وسيكون من الأفضل عدم مناقشة هذا الأمر.

هزت رأسها مبتسمة: فهمت.. وأدركت إيبرل أن السيدة بوكستر تحتاج إلى الرعاية، فأضافت قائلة: سأقوم بإقناعها بالأمر.

ضحك غرايغ:

ـ سيلزمك أسابيع لتقنعيها.. لا.. لقد ابتززتها لهذا. قلت لها إذا لم يحصل ما أريد فلن أقوم بالرحلة، وسأدع الفرصة أمام المنافسين ليحصلوا على المشروع.

دهشت إيبرل لعجرفته.. وقالت مرة أخرى:

ـ فهمت!

بدا التعبير على وجهه كأنه يشير إلى تخلصه بكفاءة من مهمة صعبة أخرى.. وبهدوء تناول منديلاً من جيبه الخلفي، وقام بمسح الرماد عن يديه ثم أعاده إلى مكانه.. تقدم أربع خطوات نحو إيبرل.. وبحركة سريعة لا تسمح بأية مقاومة، انحنى واضعاً يديه تحت مرفقيها ورفعها بخفة بالغة.

قبل أن تستطيع التصرف، ضمها بين ذراعيه بطريقة لن تنساها أبداً منذ أول عناق له.. وأحست بصاعقة تجتاحها.. وتصاعدت رائحة التبغ، والعطر، وشيء آخر حميم لتملأ أنفها.. تمتم بكلمات لم تفهمها، لكنها استجابت لها بضعف وشوق.. من مكان بعيد، من مسافة واسعة، من عالم آخر، سمعت طقطقة النار، وآهات الكمان للأوركسترا التي تعزف ألحانها الناعمة.

فجأة.. أبعدها عنه، وأحست أنه أبعدها عنه بنفس القوة التي

www.elromancia.com

عانقها بها. تمتمت بحدة:

ـ غرايغ؟ ما الأمر؟..

أخذ غرايغ بضع أنفاس عميقة، وقال بصوت منخفض مخنوق:

ـ سامحيني إيبرل.. أنت امرأة جميلة، ونبيلة.. لكن هناك حدود للخدمات التي يمكنني طلبها منك.

لفح وجه إيبرل احمرار مؤلم وكأنما تعرضت لحروق مفاجئة.. أهكذا ينظر إلى الأمر؟ مجرد خدمة أخرى؟ انفجرت الفتاة المتزمتة داخل رأس إيبرل بالدموع الخائفة، وصاحت: أرأيت؟ ألم أحذرك؟ أنت الآن لا تختلفين عن أي امرأة أخرى قدمت له خدماتها!

لكن إيبرل، العصرية فكرت بسخرية: وما هو الجديد في الأمر؟ بالطبع لم يكن هذا كله يعني شيئاً له! ألم تذكر نفسها لتوها أن مشاعر هذا الرجل ليست سوى عادة «دون جوانية»؟ أو لم تتفاخر بأنها تستطيع التعامل معه؟ حسن إذن، لمَ هذا الإحساس السخيف بأنه غرّر بها؟

لإنقاذ ما تبقى من كرامتها المشتتة، ابتسمت إيبرل ساخرة وقالت بلهجة الواثق المتفهم:

ـ لا داعي للاعتذار غرايغ، دعنا لا نعطي الحدث أكثر من قيمته. عناق عفوي، سببه عشاء جيد، نار دافئة، وأمسية ربيع عطرة إضافة إلى أصوات الكمان المنبعثة من الستيريو، وكما وصفت الأمر منذ أسابيع، إنه حق رجل في فتاة.. أرجوك، لا تفكر بما حدث مرة أخرى.. فأنا بكل تأكيد لن أفعل.

تغير التعبير على وجه غرايغ لكلامها الهادىء، وتحول وجهه المفكر إلى التصلب. ابتسامته المتكسرة لم تصل إلى عينيه، وهو يقول بجفاء:

ـ كم أنت محقة إيبرل.. ما كنت لأقول أفضل من هذا.

غادرها بوداع بارد وخلا المكان لإيبرل لتذرف بضع دموع ساخنة

ذلك المساء، لكن بحلول اليوم التالي تلاشت كل آثار لقائهما المذل من عقلها.. أحست أنها أنقذت ماء وجهها بما قالته له.. في الواقع الكثير مما قالته صحيح.. في المستقبل، ستكون أكثر حذراً في الوجود على مسافة قريبة منه.. يمكنها أن تكون متأثرة من معاملته اللطيفة لليز في الحصن.. وأن تكون ممتنة لأنه طلب منها العناية بأمه، بدلاً من أن يطلب ذلك من ريبيكا، المرأة التي من الطبيعي أن يطلب العون منها.. أما ما تبقى من مشاعرها نحوه، فقد قررت وضعها بعيداً عن التفكير والمضي في حياتها.

في حوالي الرابعة من بعد الظهر، هبت ريح عاصفة وبدأ هطول المطر.. فتوقفت إيبرل عن العمل وعادت إلى منزلها. استبدلت ملابسها وارتدت بنطلوناً أحمر داكناً، وكنزة بيضاء. ثم وضبت حقيبة صغيرة وضعت فيها ملابس لليلة واحدة، وبضعة أشياء قد تحتاجها لقضاء ليلتها في المنزل الكبير. وضعت الماء والطعام لبرنس ونظرت إلى المطر الذي ينهمر بغزارة والريح المشتدة. وضعت معطفها الواقي من المطر فوق رأسها، وركضت نحو مطبخ المنزل الكبير.. لا شك أن السيدة أغريبا كانت تراقبها، فما إن وصلت حتى انفتح الباب ثم أقفل وراءها. وتمتمت السيدة أغريبا متذمرة، تستقبلها:

ـ أكره هذا الطقس.. انزعي هذا الشيء المبتل عنك قبل أن تبللي مطبخي كله.

وضعت إيبرل حقيبتها من يدها، وعلقت معطفها في الخزانة الصغيرة في غرفة الغسيل خلف المطبخ، ثم عادت لترى ما إذا كانت تستطيع مساعدة السيدة أغريبا..

قالت المرأة بلهجة ألطف من العادة:

ـ أعتقد أنك ترغبين في شيء ساخن.

ـ إذا كان هذا لا يزعجك.

ـ لا . . لقد أعددت لنوي قهوة طازجة . . وبإمكاني إراحة قدمي قليلاً .

صبت فنجانين من القهوة الساخنة ، وأضافت :

ـ ومن الأفضل أن أنزع قشور البازيللاء من أجل تحضير العشاء ، وأنا جالسة .

تناولت قصعة البازيللاء من البراد وجلست متنهدة .

لاحظت إيبرل أن تعابير المرأة مختلفة هذا اليوم . . صحيح أن العبوس لا زال ظاهراً لكنه لم يكن شديداً . كان يحيط بها جو من الإثارة المكبوتة وكأن شيئاً رائعاً على وشك الحدوث . هذا التغيير المفاجيء للمرأة حمل إيبرل على الحذر أكثر .

سادت لحظات صمت ، وإيبرل تفكر متعجبة بحذاقة أصابع المرأة في تقشير البازيللاء . . تكلمت المرأة فجأة :

ـ أرجو أن يتغير الطقس غداً .

ردت بحذر ، فإن كان هناك تلميح بهدنة فيجب أن تشارك :

ـ أجل . . وأنا كذلك . . لا زال هناك الكثير من العمل في الحديقة .

ـ لدينا زائرة صغيرة غداً ، ولن أحب أن تحبس في المنزل طوال اليوم . . يكفيها حبسها في الشقة التي تعيش فيها .

سألت إيبرل :

ـ أوه؟ من القادم؟

ـ أجمل فتاة صغيرة في العالم . . ببساطة .

ـ أهي حفيدتك؟

ضحكت المرأة بصوت أجش ، ورفعت رأسها برشاقة :

ـ تقريباً! لقد اعتنيت بربيكا منذ ولادتها . . وحين ولدت تانيا اعتنيت بها كذلك . . فأنا مقربة لأسرة ماونتين .

رددت إيبرل بضعف :

ـ ماونتين؟ ربيكا لديها فتاة صغيرة؟

ـ بالتأكيد . . وهي صورة عن أمها كذلك .

مالت إلى الأمام وكأنها تفضي إليها بسر :

ـ ليس من طبعي التكلم بسوء عن الأموات ، لكن ، على أي حال ، نعمة من السماء أن الطفلة لم ترث عن أبيها شيئاً من هيئته .

ـ أوه؟

هزت السيدة أغريبا رأسها بشدة :

ـ كان أحد الغرباء . . داكن البشرة ، وقصيراً . . رأيت مرة صورة له وهو شاب ، وحتى في ذلك السن لم يكن جميلاً ، إن سألتني رأيي .

ـ وهو ميت الآن ، كما قلت؟

ـ مات منذ ثماني سنوات قبل أن تولد الطفلة ، ومات سعيداً . . أكثر الفتيات لا ينظرن إلى رجل مثله مرتين ، فما بالك بالزواج منه ، والسهر على مرضه . . تلك الفتاة قديسة .

وهزت رأسها بعجب .

قالت إيبرل مفكرة :

ـ فهمت . . وأرجو أن يكون قد ترك لها ما يكفيها .

أشارت السيدة أغريبا بيدها دلالة عدم الاكتراث :

ـ مال لا يُعد . . وهذا أمر عادل ، نظراً للإخلاص الذي أظهرته الفتاة له . وهي لا تحب أن تسمعني أقول هذا ، فهي كالملاك .

صمتت قليلاً ، ثم أكملت برضى :

ـ إذا تأملت الصغيرة ، فلن تحسبي أبداً أنها ابنة رجل غريب .

تنفست إيبرل ودماغها يقلب هذه الصورة الجديدة عن ربيكا ، وتمتمت السيدة أغريبا بمحبة :

ـ الحبيبة تانيا . . سوف تبقى عندي أسبوعاً كاملاً . . بينما تكون

www.elromancia.com

ريبيكا في المكسيك.

كررت إيبرل مصعوقة:

ـ المكسيك؟ ريبيكا ذهبت إلى المكسيك؟

نظرت المرأة إلى إيبرل نظرة انتصار:

ـ هذا صحيح.. بصحبة السيد غرايغ.. ولن يدهشني إن عادا متزوجين.

ثم صمتت مترقبة، وكأنما لتترك قنبلتها الأخيرة تستقر في رأس إيبرل.

وهذا ما حصل.. وكأنها وابل من الرصاص.. فكون ريبيكا أرملة ولها طفلة في عمر ليز، أمر قادرة على استيعابه في جلسة واحدة.. لكن أنها ذهبت إلى المكسيك مع غرايغ! مع اندفاع هذه المعلومات إلى دماغ إيبرل، أحست بصداع يتصاعد، والأسوأ من هذا كان تهديد الدموع.. كانت سخرية إيبرل من نفسها عظيمة لتذكرها كيف أنها اغترت بنفسها، لأن غرايغ اختارها هي بدلاً من ريبيكا للاعتناء بأمه.. ولم يخطر ببالها قط أن يكون السبب ذهاب ريبيكا معه إلى المكسيك.. يا للسماء! كم هي غبية بلهاء! وذلك الغزل.. الذي حدث بعد حصوله على موافقتها لمساعدته، وكما كان الأمر في أول عناق لهما بعد أن ترك أمه تقنعها بالعمل.

كل شيء متناسب مع الخطة التي وضعها منذ اليوم الأول للقائهما، أن يتركها تظن ما تشاء، طالما الأمر مناسب لغاياته.. وأن يدوس بقسوة على مشاعرها طالما يحصل على ما يريد.. الآن لم تعد تصدق أن مشاعره نحو ليز حقيقية.. بل مجرد وسيلة شريرة ليسيطر على إيبرل.. ولن تسامحه أبداً لاستغلاله ليز.

وقفت إيبرل:

ـ الواقع أنني لن أندهش كذلك إن بروب.. بل هذا ما أرجوه.

نظرت المرأة إليها بارتياب: حقاً؟

ـ أجل.. أظنهما مناسبين جداً لبعضهما.. إنهما يستحقان بعضهما.

قالت المرأة بحماس:

ـ أنت محقة تماماً، كانا مقربين منذ طفولتهما، كان والداهما شريكين.. وكان يجب أن يتزوجا منذ زمن بعيد، لولا ذلك الغريب..

تلاشى صوتها، ثم نظرت إلى الفراغ وأكملت بلهجة آملة:

ـ سنعود عائلة من جديد حين يتزوجان. وستعود الأشياء كما كانت..

تدخلت إيبرل بلطف في حلم يقظة المرأة، لتسأل:

ـ هل أربتني أي غرفة سأستخدم سيدة أغريبا؟ أود أن أرتاح قليلاً قبل موعد العشاء.. إذا كنت لا تمانعين.

كان يوجد علبة أسبرين في حمام الغرفة التي ستستخدمها إيبرل.. ولا شك أن قرصين منها ساعداها فعلاً كي تغوص في نوم قلق متململ.. فقد كانت الساعة تقارب السابعة حين استفاقت على صوت المطر والرياح الهوجاء خارجاً.. غسلت وجهها بتكاسل ووضعت عليه بعض الزينة، ثم مشطت شعرها قبل أن تترك غرفتها لتناول العشاء مع والدة غرايغ، كما وعدت.

كانت السيدة بوكستر تجلس في مقعد وثير قرب النار. وشهقت مع دخول إيبرل الغرفة.

ـ يا ابنتي العزيزة! هل أنت مريضة؟ تبدين بحالة فظيعة!

أجبرت إيبرل ابتسامة على شفتيها:

ـ إنه زكام كما أعتقد.

ـ بعد العشاء، اذهبي رأساً إلى الفراش.. أم تفضلين الذهاب الآن وتناول العشاء في غرفتك؟

لم تستسلم السيدة بوكستر، إلا بعد إصرار إيبرل على أنها تفضل تناول العشاء معها.. لكنها طيلة فترة الطعام كانت تراقبها بعين الصقر، وهي تحادثها بمواضيع شتى.. استعلمت خلالها عن كل ما تم إنجازه في الأراضي، ساد بعده صمت قصير، وغلب البؤس إيبرل لدرجة أنها أحست معه بسقم.

بعد أن أحضرت لهما السيدة أغريبا طبق الدجاج، ورجعت إلى المطبخ.. سألت السيدة بوكستر:

ـ هل قالت لك أغريبا إن ابنة ريبيكا الصغيرة قادمة لتبقى معنا لبضعة أيام؟

ـ أجل، بينما أمها في المكسيك.

تنهدت السيدة بوكستر:

ـ كان الأمر مفاجئاً.. لطالما كانت ريبيكا فتاة متهورة.. لقد رتبت أمر هذه الرحلة في وقت قصير بحيث لم يكن هناك وقت لاستخدام مربية مناسبة.

ـ تبدو السيدة أغريبا مبتهجة للأمر.

ـ أوه.. أجل.. إنها تحب تانيا.

صمتت قليلاً وكأنما تقرر ماذا ستقول، ثم:

ـ إيبرل.. أريدك أن تكوني حرة التصرف في المجيء إليّ إذا أزعجت الصغيرة عملك، أو تدخلت فيه.. إنها طفلة لطيفة.. لكنها مدللة نوعاً ما وقد ترتكب حماقات أو ما شابه.

ابتسمت إيبرل:

ـ الأطفال ليسوا بغرباء عني.. أعرف أنهم مزعجون بين وقت وآخر.. لكنني واثقة أنني لن أتذمر منها.

ردت السيدة بوكستر بابتسامة قلقة:

ـ لا تكوني واثقة جداً..!

ثم تنهدت مرة أخرى:

ـ على الأقل، سيكون تغييراً مفيداً للمسكينة أغريبا.. إنها ليست سعيدة معنا هنا، وتدركين هذا.. إنها معتادة أن تعيش وسط عائلة اجتماعية دائمة المشاغل.. ونحن مملون جداً لذوقها.

ـ ولماذا لا تجد لنفسها عملاً أكثر ملاءمة إذن؟

ترددت السيدة بوكستر، ثم في لهجة هادئة لطيفة شرحت:

ـ حسناً.. أغريبا جاءت للعمل عند أسرة ماونتن وهي صغيرة جداً.. كانت خارجة لتوها من المدرسة.. وبقيت معهم خمس سنوات قبل أن تتزوج.. بعد أشهر قليلة قتل زوجها في حادث.. ولم يكن لديها أولاد. كانت أسرة ماونتن عائلتها الوحيدة، وهم الآن أموات جميعاً باستثناء ريبيكا وتانيا. ليونيل، والد ريبيكا، مات منذ سنوات.. ومؤخراً تزوجت أمها ورحلت إلى بالم سبرنغ. ريبيكا تعيش في شقة.. وتشعر أن لا مكان لأغريبا معها.

صمتت السيدة وكأنها تتفحص كلماتها التالية.. ثم أكملت:

ـ إيبرل.. قد لا يكون فاتك ملاحظة أن أغريبا ليست.. حسناً.. ليست شخصاً من السهل التعامل معه.. إيجاد عمل جديد لم يكن سهلاً عليها.. هكذا، لم يكن لديها مكان تذهب إليه.

جعلت النظرة المضطربة على وجه السيدة بوكستر اللطيف إيبرل تتمنى لو أنها لم تسأل ذلك السؤال القاسي.

حين عادت السيدة بوكستر إلى الكلام كان صوتها مشرقاً:

ـ ثم اشترى غرايغ هذا المكان.. وعرضت أغريبا أن تساعدنا إلى أن.. إلى أن: إما أن تتزوج ريبيكا مرة أخرى ويصبح لديها مكان لها، أو إلى أن نستقر ونجد لنا مدبرة منزل دائمة. وأظننا جميعاً استفدنا من هذا الوضع المؤقت.

كان بإمكان إيبرل أن تقسم بأن السيدة بوكستر لن ترفع إصبعاً يدل

على رغبة في استبدال السيدة أغريبا، إلى أن تعبّر الأخيرة بنفسها عن رغبتها في الرحيل.. وأصبح واضحاً تماماً لإيبرل، لمَ تنظر إليها السيدة أغريبا كتهديد لأمنها ومستقبلها..

حسناً.. كل شيء أصبح واضحاً الآن.. وهي سعيدة لمعرفة القصة مهما كانت محزنة.. لأنها الآن وقد فهمت دوافع السيدة أغريبا، ستتمكن من تهدئة مخاوفها.. وستكون شريرة فعلاً كي تشتبك بحرب باردة مع امرأة وحيدة مثلها.. فإيبرل تعرف جيداً ماذا يعني أن يكون المرء وحيداً لا جذور له في العالم.. الآن، فهمت هذا أكثر من أي يوم مضى، لأن الحلم الذي تجرأت أن تحلمه، عاش قليلاً ثم ذبح بقساوة.

***

٧ ـ ثوب العروس

كشفت الأيام القليلة التي تلت عن تغيير ملحوظ في سلوك السيدة أغريبا خلال زيارة الصغيرة تانيا ماونتن.. كان وجهها يحمل تعبيراً هادئاً قانعاً بدل تجعده المألوف، والأكثر ملاحظة، كانت السعادة التي تشعر بها لوجود الطفلة والتي بدت أنها تغمرها بشكل كامل، بحيث تتدفق متسعة للجميع في المنزل، حتى لإيبرل. ولكن برأي إيبرل تانيا ماونتن ليست طفلة يسهل حبها.

كان لتانيا وجه ملاك وشخصية شيطان متمرس، وبدا أنها حقاً ابنة أمها.. فهي لا تمتلك فقط جمال أمها الشبيه بجمال دمية البورسلان، بل تمتلك كذلك غطرستها المستهترة، مع ميل الطفلة إلى الانغماس في نوبات غضب متوحشة أمام أي استفزاز.. خلال الأسبوع، شهدت إيبرل عدداً من ردات الفعل هذه، وكانت غوين أغريبا تعالجها كلها بتحمل محب مثير للإعجاب.

لكن نوبة غضب واحدة تركت انطباعاً حاداً في نفس إيبرل، لأن المخلوقان اللذان تحبهما أكثر شيء في العالم، كانا الضحيتين.. حدث ذلك مساء سبت بعد أن حولت الطفلة العشاء إلى مجزرة، إذ قالت السيدة غرايغ متجهمة:

ـ ذكر لي غرايغ أن لك صديقة صغيرة في عمر تانيا.

ـ أجل.

www.elromancia.com

وأملت أن تكون مخطئة في ما تظن أنه سيطلب منها.

ـ أخبرتك سابقاً أن تانيا ستضجر هنا.. ربما لو كان بصحبتها من تلعب معه، في مثل سنها.. ما رأيك؟

هكذا، وعلى مضض، وبالرغم من رفضها الصامت، وافقت إيبرل على أن تحضرها في الغد.

في اليوم التالي، لم تكد تمضِ ساعة على وجود الفتاتين معاً حتى تحققت أسوأ مخاوف إيبرل.. طبيعة الطفلتين المتعاكستين شبيهة بتعاكس الزيت والماء.. ولإحساسها بالذنب والمسؤولية، قررت إيبرل أن تبقى على مرمى السمع طوال اليوم.. وبعد غداء محموم على المرجة، تركتهما لتأكلا الحلوى، وشغلت نفسها في تشذيب الشجيرات المزهرة عند الحد الغربي للمرجة.

كان أول صوت سمعته إيبرل شهقة مخنوقة، ثم تبعته صيحة حادة من ليز:

ـ كفي عن هذا! دعيه وشأنه!

ثم جاء صوت تانيا المتكبر:

ـ اخرسي، واهتمي بشؤونك! أنا الأم ويجب أن يشرب العصير.

استدارت إيبرل لترى رأس برنس عالقاً بشدة تحت إبط تانيا، وجسده يتلوى تحت ذراعها، قائمتاه الخلفيتان تتحركان في الهواء بيأس، وليز تقف ويداها مشدودتان أمام صدرها بينما قدماها ترتجفان بذعر.. تجاهلت تانيا بعناد كل هذا العذاب، وأكملت تصب الليمونادة في حلق القط المختنق.

صاحت إيبرل بصوت حاد أجفل الفتاتين معاً:

ـ هذا يكفي تانيا!

ردت الفتاة بتكشيرة متحدية، وأمسكت القط من شعره ورمته إلى أبعد مدى تسمح به قوتها، حيث انطلق هارباً كالصاروخ..

صاحت تانيا في وجه إيبرل:

ـ لا أريد أن ألعب بهذا القط الغبي البشع على أي حال!

انفجرت ليز باكية وهي تصيح:

ـ إنه ليس غبياً ولا بشعاً.

استدارت تانيا نحو ليز بغضب مجنون، كانت إيبرل تخشاه خلال الأسبوع الذي مرّ:

ـ بلى إنه كذلك. وأنت أيضاً! في الواقع هذا سبب ترك أمك لك، أنت غبية إلى درجة أن تصدقي أنها في المستشفى مريضة! لكنني أعرف أنها هربت وتركتك لأنك بشعة! أنت بشعة جداً حتى أن أمك ذاتها لا تحبك!

أبعدت نظرة الصدمة الحزينة على وجه ليز كل شيء من رأس إيبرل.. مدت يديها إلى ليز تنوي إبعادها وإنهاء الصدام بينها وبين تانيا.. وأحست بطعنة تدمي قلبها حين انتزعت ليز نفسها منها وخبأت عينيها الباكيتين بين يديها.. أوه.. يا إلهي! هل تظن الصديقة الصغيرة أن إيبرل قد تضربها في فورة غضب؟.. وقالت متضرعة:

ـ ليز.. حبيبتي..

فجأة تناهى صوت رجل عميق من بعيد:

ـ سأتولى هذا الأمر بنفسي.. خذي ليز إلى منزلك.

رفعت إيبرل رأسها لترى غرايغ يتقدم عبر المرجة حاملاً حقيبة تحت إبطه، ويشير إلى تانيا باليد الأخرى ونظرة تجهم عنيد على وجهه.. حملت إيبرل ليز بين ذراعيها، فلفت الفتاة ذراعيها النحيلتين بقوة حول عنق إيبرل وقد استعادت توازنها. انطلقت إيبرل نحو منزلها وكان آخر ما سمعته صوت غرايغ الصارم يقول:

ـ حسن جداً أيتها الشابة الصغيرة.. لا أريد سماع كلمة أخرى منك.. والآن.. إلى المنزل.. تحركي!

بعد بضع دقائق، ظهر غرايغ عند باب منزل إيبرل، لا زال يحمل حقائبه، ورآها في غرفة الجلوس والصغيرة مكورة في حجرها فوق الأريكة.. دخل، وقالت إيبرل وعيناها مليئتان بالدموع:

ـ لم أستطع منعها من البكاء!

جلس غرايغ إلى جانبيهما، بحيث يرى وجه ليز.. ثم تكلم إلى إيبرل بلهجة جادة.

ـ أعتقد أنك لم تلاحظي أن تانيا تعاني من شيء خاطىء جداً في عينيها.

شهقت إيبرل: حقاً!

هز رأسه بحزن، دون الاهتمام بليز التي توقفت فجأة عن البكاء كي تسمع ما يقوله الكبار:

ـ نادراً ما نتكلم عن هذا.. لكنني أرى الآن وجوب ذكره لك.

ـ يا إلهي!

ـ إنه مرض نادر.. مع أنه معروف طبياً.. المسألة أن الصغيرة لا تستطيع رؤية الجمال.

شهقت إيبرل: آه..

جمدت ليز وكأنهاتلقت صدمة.. تابع غرايغ بعجز:

ـ الأمر مؤسف جداً.. يمكنها أن تكون على بُعد إنشات من زهرة جميلة، لكن كل ما تراه هو أعشاب ضارة. نعطيها فستاناً جميلاً وجديداً فتراه فستاناً قديماً.. تصوري كيف ستمضي حياتها هكذا.

لتجاريه في لعبته، ردت إيبرل:

ـ إنها لفاجعة.. مسكينة تانيا.

تنهد غرايغ:

ـ أجل.. إنه حمل فظيع بالنسبة لفتاة صغيرة.. لن ترى طوال حياتها أي شيء جميل.. وبالطبع نحن لا نخبرها عن الأمر.. فما

فائدة الكلام حول أشياء لا تستطيع أن تراها؟

ـ أجل.. أوافق تماماً معك.. فهذا ليس دون فائدة فقط بل ظلم وقساوة.

ـ بالضبط.. لهذا حين تسمي شيئاً بالبشع.. نتجاهل الأمر.. فعلى أي حال هي لا تستطيع رؤية جماله، ولا جدوى من الجدال مع شخص كهذا.

صمتت إيبرل وكذلك غرايغ.. فجأة خرجت ليز من قوقعتها، وجلست مستقيمة في حجر إيبرل لتمسح أنفها المبلل بطرف قميصها القطني.. وقالت بلهجة من يريد التسامح لكن لا النسيان:

ـ ما كان يجب أن تكون شريرة مع برنس.

قال غرايغ وكأنه يلاحظ وجودها لتوه:

ـ بالتأكيد لا! كان عملاً شريراً جداً منها.. وستنال عقابها لهذا.

ـ جيد.

بجو من الرضى، انسلت من حجر إيبرل لتأخذ لنفسها مكاناً على كرسي قبالة الأريكة.. واتجهت بعينيها المحمرتين إلى اللفائف الموضوعة عند قدمي غرايغ.

قال غرايغ:

ـ والآن عن هذه اللفائف..

راحت تراقبه وهو يتحدث بحيوية إلى ليز، وأحست بتأنيب خجل لظنها أنه إنما يلاطف ليز للوصول إليها. وكم كانت ممتنة لأنها لم تصرح بتفكيرها هذا أمامه، فأي إنسان يشهد اللطف واللباقة اللذين أظهرهما نحو ليز اليوم لا يمكنه يوماً أن يشكك بمشاعره تجاهها.. وتجاه كل الأطفال.

استقرت في قلب إيبرل ثقة عميقة دافئة بهذا الرجل، فمهما كان الذي حدث في الماضي أو ما سيأتي به المستقبل، فهي ستتذكر دائماً

www.elromancia.com

أنه قام بدور «الفارس الأبيض» لطفلة ضعيفة مجروحة.. وأنه، وبذكاء، وضع حداً لما كان يمكن أن يسبب لكبرياء ليز الضعيفة جرحاً لا يندمل.

أعطى غرايغ ليز لفافة متوسطة الحجم، وأشار إليها أن تفتحها.. طوال الوقت وهي تفعل، كان يتابع سرد تفاصيل ما اشتراه.

ـ دخلت عشرات المحلات، ونظرت إلى مئات الأشياء، بعضها كان لا بأس به، لكنه لم يكن ما كنت أفكر فيه. كنت على وشك الاستسلام، حين وصلت إلى محل صغير اسمه لابيليزا أي الجمال.. قلت للمرأة هناك «أبحث عن شيء يليق بسيدة صغيرة لها بشرة ناعمة كأوراق وردة.. وشعر كأنه السكر الأسمر، وعينان زرقاوان كالسماء.. بالمختصر، سيدة صغيرة جميلة جداً» وضعت المرأة إصبعها على رأس أنفها وفكرت قليلاً، ثم غمزت لي، ودخلت إلى آخر المحل، وهذا ما خرجت به إليّ.

أنهى غرايغ قصته في الوقت نفسه الذي جذبت فيه ليز من بين اللفائف الورقية، ما اتضح لإيبرل أنه نسخة مصغرة وغالية الثمن، من فستان الدانتيل المخرم الذي يعرف بفستان العروس المكسيكية.. وضعت ليز الفستان القطني العاجي اللون على صدرها، ومنحت غرايغ ابتسامة مرتجفة وهي تسأل بارتباك:

ـ لكن..؟ هل هذا الفستان لتانيا؟

ضحك:

ـ لا.. إنه لك وزتي الصغيرة! ماذا كنت أقول لك لتوي؟

أخفضت ليز عينيها بتمتمة:

ـ أنا لست بشعة.. أعرف هذا.. لكنني لست.. جميلة.

ضرب غرايغ جبينه براحة يده:

ـ استدعي الطبيب إيبرل! يجب أن نفحص عيني هذه الطفلة! أظنها

التقطت العدوى من تانيا.

رأت إيبرل أن ردة فعل ليز موزعة بين الضحك والدموع، فوقفت تحتضن الصغيرة وتدفعها نحو غرفة النوم.

ـ بالطبع هو لك حبيبتي. أسرعي الآن وجربيه لنراه.

حين غادرت ليز الغرفة، استدارت إيبرل نحو غرايغ والدموع في عينيها:

ـ هذا يوم لن تنساه ليز.. وأريد أن أشكرك لجعلك إياه ذكرى جميلة بدلاً من فاجعة لا تنسى.

رد بهدوء:

ـ لا تمدحيني كثيراً.. فأنا لم أقل كلمة غير صحيحة.. إنها فعلاً فتاة جميلة إن كان للمرء عين صادقة ترى الجمال.

أحست بشوق غامر كي تعانقه، لكنه شوق مختلف تماماً عن الذي شعرت به منذ أسبوع، وفي نفس المكان. في الواقع، كان الإحساس أكثر عمقاً وأقوى.. ومن غير الحكمة أن تنقاد وراءه..

حدقا ببعضهما صامتين.. ثم تم اللقاء. أحست بذراعيه تطوقانها، وتضمانها بحنان ورأسها على صدره.. قال متمتماً:

ـ رائحتك كرائحة الخوخ في الشمس.

أحست بجسدها يسترخي.. وفي هذه اللحظة بالذات، قفزت ليز عائدة إلى الغرفة ووجهها الصغير البسيط يلمع بفرح.. على الفور سحبت نفسها مبتعدة عن غرايغ، وهي تشعر بغباء شديد لأنها ومرة أخرى فقدت سيطرتها على نفسها، واستجابت لدى أول حركة من إصبع هذا الرجل.. لكن ليز كما يبدو لم تلحظ أي شيء غير عادي وهي تقف بخجل أمامهما، تنتظر مقطوعة الأنفاس تعليقهما.. وبدت فعلاً كزهرة جبل صغيرة صافية في ثوبها الأبيض.. أبديا لها إعجابهما الشديد، ثم ناولها غرايغ لفافة أخرى. قال وهي تخرج منها دمية خشبية

www.elromancia.com

ترتدي ثياب مهرج:

ـ هذه لتخليد ذكرى أول يوم من لقائنا.. لكنني كنت أتمنى لو أنها تمتلك فماً ليلكياً.

وشارك إيبرل ابتسامة خاصة.

بينما انشغلت ليز بتحريك خيوط الدمية، وراحت تضحك بابتهاج للحركات الغريبة التي تقوم بها.. قدم غرايغ آخر لفافة إلى إيبرل:

ـ وهذه لك.

وضعت الهدية في حجرها.. وفتحت فمها عاجزة عن الكلام.. كيف يمكنها التعامل مع هدية كهذه؟ في مثل هذا الظرف، يمكن أن يكون لها دلالة كبيرة.. أو.. من ناحية أخرى، قد لا يكون لها معنى أبداً.. شلّها الارتباك ولم تقدر على قول شيء.

لكن ليز لم يكن عندها مثل هذه المشكلة.. فصاحت قائلة بسعادة:

ـ إنها تشبه هديتي إيبرل! سنكون كالتوأم الآن!

مررت إيبرل يدها بنعومة فوق القسم العلوي المطرز المحتشم، الأكمام الواسعة كالجرس، التطريز اليدوي الناعم للثوب المشابه لثوب ليز، ثوب العروس المكسيكي.

في الأيام التي تلت ذلك الأحد المليء بالأحداث. فكرت إيبرل العديد من المرات بالفستان الجميل المعلق الآن في خزانتها في انتظار أن ترتديه في مناسبة لائقة.. لكنها أحست بالغباء لمجرد التفكير بما دفع غرايغ لأن يأتيها بهدية، هذا عدا عن اختياره لهذه الهدية بالذات.. لا شيء في تصرفاته، ماضياً أو حاضراً، يجيز لشخص متعقل أن يستنتج أي معنى خفي من هذا.. إنه رجل عابث، صحيح أنه ساعد ليز، وبدافع الكرم، بشراء هدية لها، وفي هذا الوقت بالذات، اشترى نفس الهدية بحجم كبير لامرأة شابة متعلقة بتلك الطفلة. لذلك ودون

أدنى شك، الأمر بسيط ولا مبرر لتعليق الآمال حوله. ومع ذلك، فإن سوء النية بقي في رأسها يحذرها إلى أن خشيت أن تنهار أعصابها.

لذا كان من المريح لها، أن تكتشف السبب الحقيقي لاختياره ثوب العروس المكسيكي.. حدث هذا في يوم دافىء أوائل نيسان، كانت الحرارة مرتفعة في غير أوانها، ووجدت العمل في تنظيف أكوام الأعشاب اليابسة على المنحدر الخفيف الذي يقع بين البركة وملعب التنس مرهقاً، معرّقاً. كان نسيم الربيع ساكناً هادئاً، ما عدا أصوات أزيز النحل التي تدور لتكمل عملها اليومي.. حتى أنها قفزت مجفلة لسماع اسمها.

ـ آنسة ساوندرز! مرحباً هناك! أراك تعملين كالقندس.

كانت ريبيكا ماونتن تقف وسط السلالم الموصلة بين البركة والملعب. ترتدي بيكيني أزرقاً لماعاً. وبالطبع، كانت إيبرل ترتدي ثياب العمل، بنطلون جينز وقميصاً قطنياً، وتربط قطعة من القماش لمسح العرق عن جبينها..

ردت إيبرل بهدوء:

ـ بالطبع لا.. ولماذا تعيقينني؟ أرى أنك بدأت تكتسبين اللون الأسمر.

ـ لا يمكنك أن تتصوري مدى روعة الطقس في المكسيك.. لا شيء سوى الشمس وضوء القمر لأسبوع كامل.

عرفت إيبرل أنها تريد أن تتصورهما معاً، هي وغرايغ، تحت ضوء القمر.. وبالطبع تصورتهما. كانت ريبيكا تحمل في يدها كوب عصير مثلج من نوع ما، أخذت ترتشفه بعد أن جلست في المقعد ووجهها متجه ناحية الشمس.. وأكملت:

ـ جئت اليوم لزيارة ماريان، لكنني وجدتها مشغولة حتى أذنيها في التحضير لحفلتها.. وغوين مشغولة بتانيا.. لذا بقيت وحدي.

- ستكون السيدة بوكستر جاهزة في حزيران إذا بدأت التنظيم منذ الآن.

ردت بتكاسل:

- أوه.. ليس تلك الحفلة. ستقيم حفل تعريف بالمنزل بعد أسبوع أو اثنين.. بالتأكيد أخبرتك عنها!

- لا.. ولا سبب يدعوها كي تخبرني عنها.

- هذا ما ظننته، مع أنها أصرت على دعوتك.. أنا واثقة أنك ستتلقين الدعوة قريباً.

كان هناك نوع من المشاكسة في صوتها. ولم ترد إيبرل، لكن أفكاراً عديدة كانت تتسارع في رأسها. لماذا تصر السيدة بوكستر على مجيء يد عاملة إلى حفلتها الخاصة؟ هل ترفض إيبرل الدعوة؟ هل سيكون غرايغ هناك؟ ولو قبلت.. ماذا يمكن أن ترتدي؟

كأنما قرأت ريبيكا أفكارها، فقالت:

- سيعطيك هذا فرصة لارتداء ثوبك الجديد.. إنه ثوب مناسب لحفلة يوم أحد مفتوحة.

سألت إيبرل بدهشة:

- وهل تعلمين بأمر الفستان الجديد؟

ضحكت بطريقة بغيضة:

- أستطيع قول هذا! لقد أتعبت قدميّ كثيراً لأشتريه، وهدايا تلك الفتاة القبيحة كذلك.

حبست إيبرل أنفاسها.. بكل تأكيد، لا يمكن أن يكون غرايغ قد دعا ليز بالقبيحة.. لا.. لن تصدق هذا.. لا شك أنها أغريبا.. صحيح أنها كانت لطيفة محبة لليز في ذلك اليوم المليء بالأحداث.. لكن بالمقارنة مع جمال تانيا، فهي على الأرجح رأت ليز عادية جداً.

أحست إيبرل بالإرهاق فجأة فجلست على الأرض وأخرجت

منديلاً متسخاً من جيبها وراحت تمسح به وجهها المبلل عرقاً.. إذن ريبيكا هي التي اختارت الفستان الذي أمضت إيبرل الكثير من أوقاتها تحلم به.. يمكن أن تكون صاحبة فكرة الهدية أيضاً.. لا بد أنها كانت تشتري هدايا لغوين وتانيا فقالت حينها لغرايغ:

- لماذا لا تنتقي شيئاً لتلك التي نسيت اسمها.. الفتاة الجنائنية التي أبدت الاستعداد لرعاية أمك.

مرة أخرى، وبخفة، رددت ريبيكا أفكار إيبرل.. قالت ضاحكة في تسامح:

- يا للرجال! إنهم لا يعرفون ماذا يشترون ولا أين يجدون طلبهم. وكان يوماً حاراً جداً حتى ظننت أنني سأذوب!

دون حماس، قالت إيبرل شيئاً يشبه كلمة شكر، وأضافت «إنه فستان جميل».. ساد الصمت قليلاً بين المرأتين، ثم سألت ريبيكا فجأة:

- ماذا تنوين أن تزرعي هناك حيث تنظفين التراب؟

ردت إيبرل بدهشة، لأن ريبيكا أظهرت اهتماماً بالحديقة:

- الخباز كما أعتقد.

- أعتقد أنني أفضل شجيرات التوت البري الأحمر.

تفضل؟

- التوت البري الأحمر.. دعيني أفكر.. هناك الكثير من الشجيرات المماثلة.. ما رأيك بشوك النار؟

- هذه هي، آخر واحدة.. أظنني سأحبها، إنها تمتلىء حيوياً حمراء كالكرز في الخريف.

ترددت إيبرل، غير واثقة.

- أظن أن النحل سيسبب مشكلة مع وجود شوك النار، فهو يتجه إلى زهرها الحلو المذاق في الربيع.. ومع وجود الناس حول البركة

www.elromancia.com

أظن شيئاً آخر سوف..

جلست ريبيكا تظلل عينيها بيدها، وتنظر بثبات إلى إيبرل ثم قالت:

ـ آنسة ساوندرز.. حين تمتلكين حديقة خاصة بك بإمكانك زراعة ما تشائين.. أما الآن فتذكري أنك تعملين هنا.

تجمد وجه إيبرل وتصلب جسدها بالإهانة والغضب وهي تقف تتحضر للمغادرة.. وتذكرت أمل السيدة أغريبا في أن يعود غرايغ وريبيكا من المكسيك متزوجين.. لكن هذا لم يحدث وإلا لما أضاعت ريبيكا أية لحظة للإعلان عنه. لكن من الواضح الآن أن الزواج وشيك، فها هي ريبيكا تتحدث وكأن لها حقوق الزوجة ومالكة الأرض.. حسن إذن، فلتحصل على الأشواك النارية قرب بركة سباحتها.. فبحلول الربيع القادم، حين يأتي النحل ليمتص الرحيق الحلو من الزهور العاجية اللون، ستكون إيبرل قد رحلت عن هذا المكان منذ زمن بعيد.

قالت ريبيكا بدهشة مصطنعة:

ـ أوه.. هل أنت ذاهبة؟ أرجو أن لا يكون السبب شيئاً قلته..

بينما كانت إيبرل تبتعد، عادت ريبيكا تسترخي بارتياح في مقعدها لتدير وجهها مرة أخرى إلى الشمس.

***

٨ ـ معاهدة صداقة

خلال الأسبوع التالي، سارت الأمور من سيء إلى أسوأ بالنسبة لإيبرل. فما كاد المسكين برنس يستعيد سيطرته النفسية من سوء معاملة تانيا له، حتى أحس باضطرابات معوية استدعت أخذه إلى البيطري ليعطيه حقنة علاج.. والديدان القاطعة أفسدت كل ما زرعته من لوبياء وبازيللاء خضراء.. واتصل مات في أمسية ليقول ان المسؤولة الأم عن ملجأ أصدقاء الأطفال استقالت بسبب المرض وان من اللازم إيجاد البديل فوراً.. ولأن إيبرل دهشت برضى لمحبة السيدة أغريبا للأطفال، فكرت أن تعرض اسمها على مات. لكنها صرفت النظر عن الفكرة فوراً.. فمع قرب اتحاد ريبيكا وغرايغ، سيتحقق المستقبل الذي كانت ترجوه السيدة أغريبا.

لكن أسوأ ما كان أن الزوجين إيڤنز سيفقدان منزلهما.. وسافرت إيبرل بعد ظهر يوم الخميس إلى المدينة لتصطحب ليز من أجل شراء ثياب صيفية لها.. ومع أنها استقبلت بالحفاوة المعتادة إلا أنها أحست فوراً بوجود جو من القلق في المنزل الصغير. وبينما كان الثلاثة الكبار ينتظرون رجوع ليز من المدرسة، قص ماكس على إيبرل ما حدث:

ـ لقد اشترى مقاول معظم الجوار، ومالك المنزل أعطى أسرة إيڤنز إنذاراً لإخلاء المنزل في مدة أقصاها ثلاثة أشهر.

وقال ماكس يائساً:

www.elromancia.com

ـ بعض الجيران وجد مسكناً جديداً. . لكننا لم نجد مكاناً نستطيع تحمل إيجاره ويكفينا نحن الثلاثة في مكان يقرب من المدرسة.

تمتمت فاين بحزن:

ـ أخشى أن نفقد الطفلة.

صاح ماكس بها:

ـ كفي عن هذا يا امرأة! مهما ساءت الأمور لن يحصل هذا!

لاطفتهما إيبرل:

ـ بالطبع لن يحصل. . سأساعدكما في البحث عن منزل مناسب. لا بد من وجود مكان ما في هذه المدينة الكبيرة. . أو ربما ستزيد الجمعية من تعويضكما الشهري، أو سأتمكن من مساعدتكما بنفسي. . أو. . لقد وجدتها! الملجأ بحاجة إلى مربية مقيمة! لماذا لا تتقدمان لهذه الوظيفة؟ كلاكما ستكونان ممتازين. .

قاطعها ماكس بخشونة:

ـ لقد حاولنا ورفض الطلب. قالوا إننا عجوزان جداً.

تدخلت فاين:

ـ لم يقولوا هذا بالضبط عزيزي.

رد بحدة:

ـ وكأنهم قالوه! وفي أي صيغة وضعوا الرد، فهو «لا».

وانزوى بعبوس قاتم. . ماكس على حق دون شك، فللجمعية مواصفات توظيف محددة، ولن تستخدم من تجاوز الخامسة والستين. . من المؤسف خسارة شخصين لهما مثل خبرة هذين الزوجين الثمينة، لكن هكذا هو الأمر.

قالت إيبرل بهدوء لا تشعر به أبداً:

ـ حسناً، الأمر مزعج، لكنه ليس بالأمر الذي لا يمكن تحسينه لو أننا عملنا معاً. . بعد أسبوع أو اثنين، سنحل المشكلة.

لكن، فيما بعد، وقد أخذت ليز تقود سيارتها نحو وسط ساكرامنتو التجاري. . لم تعد تشعر بالتفاؤل. . إيجاد الحل سيتطلب كل عبقرية إيبرل.

بعد انتهاء التسوق، كانت الساعة تقارب الرابعة. . وانتقلت إيبرل المرهقة وليز المبتهجة من طرف مركز التسوق الجميل المحاط بالشجر إلى الطرف الآخر في عربة مفتوحة مبهرجة الألوان، تجوب المركز لراحة المشترين.

حين استعادتا السيارة من الموقف في آخر المركز وانطلقتا نحو المنزل، لاحظت إيبرل موقع بناء لشركة إنشاءات بوكستر، وأحست بالارتباك لرؤية الاسم على لوحة ضخمة عند طرف الموقع. . وأبطأت سير السيارة لتشير نحو الموقع لليز التي قالت متوسلة:

ـ أرجوك ألا نستطيع أن نتوقف؟ ربما شاهدنا غرابع.

ـ لا حبيبتي، لن يكون هنا. . لديه رجال يشرفون على العمل بدلاً منه. . لكن يمكننا أن نقف إذا شئت.

قالت هذا لأنها كانت واثقة أن مالك امبراطورية بناء عالمية لن يكون في الموقع بنفسه، وجدت مكاناً توقف السيارة فيه، وخرجت مع ليز لتقفا خارج السياج الحديدي الذي يحمي المارة والمشاة من خطر وقوع شيء.

أشارت إيبرل إلى الفتاة المهتمة:

ـ أترين، كل العمال يرتدون ما يسمى قبعات الحماية لوقاية رؤوسهم من أي شيء قد يقع.

وقفت ليز تنظر حولها مشدوهة، ثم جذبت تنورة إيبرل فجأة:

ـ انظري. . هناك بضع نساء!

وكان هذا صحيحاً أمام ذهول إيبرل. . عدة عاملات في الموقع يرتدين ذات الملابس الثقيلة التي يرتديها الرجال، وقبعة الحماية

المطلوبة تخفي شعرهن.. تساءلت منذ كم تحافظ هؤلاء النسوة على أعمالهن.. وهل أساءت الحكم على غرايغ بوكستر وموقفه نحو المرأة في عالم العمل؟ أم أن عملها هو الذي لعب دوراً ولو صغيراً في تغيير رأيه؟ كم ستعطي مقابل معرفة هذا الرد.

استدارت ليز إلى إيبرل بعينين لامعتين:

ـ حين أكبر، سأعمل لدى غرايغ أيضاً.

قالت إيبرل بحماس:

ـ بكل تأكيد، سيكون أمراً عظيماً، المساعدة في إنشاء بناء.

وهما عائدتان إلى السيارة، سمعت إيبرل تصفيراً خفيفاً، فرفعت نظرها لترى عاملاً شاباً يستند بوقاحة على السياج على بعد أمتار أمامهما.. وناداها بوقاحة:

ـ هاي، جميلتي.. هل لديك خطط لهذه الليلة؟

أخفضت إيبرل عينيها وأمسكت يد ليز لتجعلها في الجانب الآخر من الرجل، ثم سارعت الخطى نحو السيارة.

ـ تخلصي من الصغيرة حلوتي.. وسنقيم احتفالاً.

استاءت إيبرل إذ رأته يتحرك نحو البوابة التي تقود إلى الرصيف الذي يجب أن تمر به في طريقها إلى السيارة.

وبلهجة ملحة قالت لليز:

ـ لا تهتمي به.. إنه مجرد شاب يظن نفسه ذكياً.. وإن تجاهلناه سيمل ويعود إلى عمله.

سألت ليز ترتجف:

ـ إيبرل.. هل سيؤذينا؟

ـ بالطبع لا.

ثم تلفظ الرجل بكلام بذيء بشع، وتخلت إيبرل عن أي ادعاء بالهدوء لتركض بذعر جارةً ليز الباكية وراءها.

كانتا قرب السيارة حين سمعت إيبرل صيحة قوية بشتيمة فظيعة.. فاستدارت لترى الشاب يتراجع هارباً وغرايغ بوكستر يقف مهدداً ونظرة غضب باردة على وجهه.. أمسك غرايغ بياقة قميص الرجل وأداره.. رأت إيبرل بالتفصيل كل حركة لقبضة غرايغ وهي تتحرك من قرب خصره مستهدفة فك الرجل الأيسر.. وبوضوح مرعب، سمعت صوت تحطم أسنان الرجل.

تهاوى الرجل مكوماً فوق التراب، وركض العمال ليتجمعوا بنصف دائرة حوله.. خلال الصمت، سمعت إيبرل آهة صغيرة، فالتفتت لترى ليز المسكينة تتهاوى على الرصيف.

جاءت صيحة إيبرل المخنوقة بغرايغ إلى جانبها في لمح البصر.. رفع الفتاة المسترخية بين ذراعيه وأشار برأسه أن تلحق إيبرل به إلى مكتبه المؤقت في الموقع، ثم اتجه بليز عبر البوابة الحديدية.. حيث مرا بجماعة من العمال.. وكان الشاب يهز رأسه محاولاً استعادة وعيه.. بصوت جاف أجش بارد قال غرايغ له:

ـ اذهب واقبض أجرك، واخرج من هنا.. وإياك أن تدخل إلى أي من مواقع البناء التابعة لي أبداً.. هل هذا واضح؟

هز الشاب رأسه بغضب محاولاً تجنب عيني غرايغ، ثم انصرف.

بعد تبادل قصير للكلام مع وكيل عماله، أدخل غرايغ الفتاتين إلى سيارة لينكولن بيضاء، تبدو الآن رمادية بسبب غبار الموقع، وقادها عبر الشوارع بثبات.. خلال ربع ساعة وجدت إيبرل نفسها في الطابق العشرين في الشقة العليا من مبنى مكاتب شركة بوكستر.. وأدخلها غرايغ، ثم حمل ليز إلى أريكة بيضاء حيث وضعها بارتياح فوق الوسائد، وقال لها:

ـ استلقي الآن بهدوء.

فاستجابت له بهزة رأس وابتسامة.. استدار نحو إيبرل ليقول

www.elromancia.com

متوتراً:

ـ لم أر طفلة حساسة جداً كهذه الطفلة.

تنهدت إيبرل:

ـ أنت لا تعرف شيئاً عن مآسيها.

رد باختصار:

ـ هذا ما استنتجه.. وأنا الآن أريد سماع القصة بأكملها. استريحي وسأكون معك بعد لحظات.

حين خرج من الغرفة، تقدمت إلى حيث تستلقي ليز ووجدتها مغمضة العينين..

واتجهت إلى كرسي مريح لتجلس فيه غائصة إلى الوراء، تسند رأسها على ظهره.. لو أعطيت الخيار لتكون مع شخص ما في تلك اللحظة، لما اختارت سوى غرايغ بوكستر.. وفي أفكارها، رأت الطريقة التي برز فيها مرتين كالملاك المنقذ لمساعدة ليز، وتمنت أن تفضي إليه بكل متاعبها ومخاوفها.. لكن هذه أمنية مستحيلة، ولن تتحقق أبداً.. فهو لن يتزوج في وقت قريب امرأة أخرى وحسب.. بل هناك صدمة اكتشافها مصدر الهدية المكسيكية أيضاً.. مما ذكر إيبرل، أن تقييمها الأصلي لمشاعره نحوها كان صحيحاً: إنه رب عمل يبذل جهده لتلطيف مشاعر موظفة متوترة حساسة، بقليل من عادة «حق الرجل في فتاة».. ولقد كانت بلهاء، كالعادة، كي تفكر بشكل مختلف ولو للحظة.

عاد غرايغ إلى الغرفة يحمل صينية عليها أكواب عصير، وقال:

ـ لقد تدبرت أمر توصيل سيارتك إلى العزبة.. سأقلكما إلى المنزل فيما بعد.

تمتمت:

ـ لكن.. لكن المفاتيح معي.

ـ بعض الناس لا يحتاجون إلى مفتاح لتشغيل سيارة صغيرة بسيطة مثل سيارتك.

قالت مصدومة:

ـ لا أحد أعرفه..

فقاطعها مبتسماً:

ـ هذا لأنك كنت تعيشين حياة منزوية، أليس كذلك؟ حادثة اليوم وحدها تثبت هذا.

أحست باحمرار الغضب، واحتجت:

ـ وماذا يفترض بكلامك أن يعني؟ لم أكن خائفة على نفسي.. كنت..

والتفتت نحو ليز المصغية بعينين متسعتين، وأكملت:

ـ لقد اعترفت لتوك أنك لا تعرف شيئاً عن.. لذا، لماذا لا تعلّق «حكمك» إلى أن تسمع بعض الوقائع؟!

رفع حاجبه الأسود ساخراً:

ـ أنسى دائماً شعرك الأحمر، ولا أعرف السبب.. إنه واضح بما يكفي.

بقيت إيبرل صامتة، بينما كان يصب العصير في أكواب طويلة ويعطي ليز واحداً، ثم إيبرل:

ـ كلاكما بحاجة إلى ما ينعشكما.. فلا تجادلي.

على مضض، أخذت رشفة من عصير البرتقال البارد وراحت تتساءل عن سبب توتر غرايغ.. فطريقة تصرفه تجعل المرء يظن أنها خططت لكل الحادثة المؤلمة لمجرد إزعاجه! على أي حال اللكمة التي وجهها لذلك الشاب كانت هي السبب الذي جعل ليز يغمى عليها، فهي حساسة جداً أمام العنف.. صحيح أن إيبرل كانت خائفة من تهجمات الرجل، لكنها لم تكن «منعزلة» إلى درجة أنها لم تتعامل مع تحرشات

www.elromancia.com

غير مرغوبة من الرجال في الشارع من قبل؟ وكانت على وشك أن تفتح فمها وتقول له كل هذا وبوضوح، حين طغت عليها موجة إرهاق.. دعيه يظن ما يشاء عنك.. فما الفرق؟

اهتمت بما كان غرايغ يقوله لليز.. بعض الكلمات الملطفة لانتزاع ابتسامة، وإبعاد نظرة الصدمة عن وجهها الشاحب الصغير.

ـ.. لن أكون مشغولاً الآن، لذا تذكري أنني وعدتك بالذهاب إلى «كولوما» حيث اكتشف جايمس مارشال الذهب أول مرة. سيعجبك هذا.. أليس كذلك؟

هزت ليز رأسها بحماس، وقد عادت ابتسامتها إلى طبيعتها:

ـ إيبرل ستأتي معنا أيضاً.. أليس كذلك؟

بنظرة سريعة إلى إيبرل، رد بعفوية:

ـ بإمكانها مرافقتنا.. إذا أحبت.

قالت ليز:

ـ هل تعدني بشيء آخر؟

أجابها بحذر مرح:

ـ يجب أن أعرف ما هو أولاً.

ـ عدني أنك حين سأكبر ستستخدمني لأشيد لك المباني.. مثل أولئك السيدات اللواتي رأيناهن اليوم.

أعاد النظر إلى إيبرل بسرعة ثم رد على ليز بجدية:

ـ حين تكبرين قد تتجهين إلى عمل أنت مؤهلة له.. إذا أردت تشييد المباني لي واستطعت التكيف مع العمل الصعب.. حسناً سأستخدمك منذ الآن.

بدت سيارة اللينكولن كونتيننتال الفخمة غريبة تماماً وهي متوقفة في الشارع الذي تحفّه الأشجار أمام منزل العجوزين إيڤنز.. لدى رؤية السيارة وسائقها الوسيم الأنيق، أصيبت فاين إيڤنز بالبكم.. وتولى

ماكس أمر الاستقبال، ومصافحة غرايغ بوقار الرجل لرجل.

ـ لنا الشرف في مقابلتك سيد بوكستر.. تفضل بالدخول لتناول المرطبات.

لكن غرايغ رفض مع الشكر قائلاً إنه وإيبرل ذاهبان إلى عشاء مبكر.. وحين سماع هذا، ابتسمت فاين لإيبرل ابتسامة ماكرة رافعة حاجبيها بطريقة ذات مغزى فهزت إيبرل كتفيها، وبإشارات صامتة، قالت إن هذا خبر جديد بالنسبة لها.

روت ليز بإسهاب قصة رحلة التسوق، ومع وصولها إلى القسم المشوّق، ازداد تخوف فاين وقاطعتها:

ـ أرأيت؟ الشوارع لم تعد آمنة للناس الشرفاء.

قاطعها ماكس بسرعة، ناظراً إلى وجه ليز المضطرب:

ـ أوه.. هراء يا امرأة! أتذكر جيداً، أيام صباك، حين كنت تسيرين في الشارع وعشرات من الرجال ينظرون إليك.. هذا يحدث لكل النساء الجميلات ولا أقول انه أمر مقبول! لكن ما من ضرر حدث، لذا فلننسى الأمر.

تمتمت فاين بعناد:

ـ لم يحصل ضرر لأن السيد بوكستر كان موجوداً.

ثم لزمت الصمت لتواجه نظرة ماكس الحادة إليها.

بينما كانت إيبرل وغرايغ يغادران، صاحت ليز فجأة:

ـ ثيابي الجديدة في سيارتك إيبرل!

داعب غرايغ شعرها الرملي اللون:

ـ لا تقلقي، سأحضرها لك غداً وأنا في طريقي إلى عملي.

سألته ليز بطريقة مغرية جميلة، لم ترها إيبرل يوماً تستخدمها:

ـ ألا يمكن أن تأتي وأنا موجودة؟

ضحك غرايغ:

ـ حسن جداً أيتها الوقحة الصغيرة.. سأجيء حين تعودين من المدرسة.. هذا إن لم تكوني سئمة من رؤيتي.

ردت ليز بابتسامة خجولة:

ـ لن أسأم أبداً من رؤيتك غرايغ.

ـ ولا أنا منك ليز.

قبلها مودعاً على خدها المحمر، وطغت نصف ابتسامة على فم إيبرل.. كم هو ساحر حقاً.. مع الأولاد. سيكون أباً رائعاً لطفل محظوظ.. مثل تانيا.. تانيا الصغيرة المسكينة التعيسة التي لا تشعر بالأمان.

لم تتبادل إيبرل مع غرايغ سوى القليل من الحديث خلال الرحلة إلى العشاء المبكر الذي تدبر أمره.. مرة واحدة سألها دون أن ينظر نحوها:

ـ أرجو ألا يمانع مات مورهيد في أن أدعوك إلى العشاء؟

لم تكن معتادة على العيش مع خدعة، ففتشت بسرعة عن رد مناسب:

ـ لا أظن.. نسبة للظروف.

ـ أية ظروف؟

ردت باختصار:

ـ أستطيع الذهاب أينما شئت كما أعتقد، فأنا لست متزوجة بعد.

بعد تردد قصير، قال بنعومة:

ـ هكذا إذن.. ولا أنا.. بعد.

قالت منزعجة، تنظر إلى زحام السيارات: حسن إذن.

لكن الجو في المطعم الصغير الذي اصطحبها إليه كان أكثر إغراء من أن تقاومه، وسرعان ما استكانت لأجوائه الرومانسية الناعمة، أثر تصورها له بصحبة ربيكا هنا على سعادة إيبرل لكنها كبتت تلك

الصورة مصممة على الاستمتاع بيومها.. ولتدع المستقبل جانباً.. بعد أن أعطى غرايغ طلباتهما إلى النادل بطريقته المعتادة الكفوءة، دخل صلب الموضوع فوراً.

ـ قبل كل شيء، أريد أن أعرف لماذا أغمي على ليز اليوم. أعترف أنها تجربة عنيفة بالنسبة لها.. لكنني رأيت من الزاوية التي كنت أراقب منها، أنك كنت قادرة على الاهتمام بالأمر..

حاولت أن تشرح له أن السبب لم يكن تهجم الشاب، بقدر رؤية العنف الذي أثر على ليز.. ولكي تبعد اللوم عنه، كان عليها أن تروي قصة حياة ليز المؤلمة، كاملة.

كانا يتناولان القهوة بعد العشاء، حين أنهت إيبرل قصتها، لتدرك فجأة أنها لم تمس طعامها أبداً.. أخذت جرعة ماء لإراحة حلقها الجاف ومالت إلى الوراء متنهدة بتعب.. هز غرايغ رأسه ببطء دلالة التعجب اليائس لما يعانيه بعض أبناء البشرية.

ـ يا له من حقير، ستاتون هذا. حين أفكر أن بعض الناس قد يتخلون عن أي شيء، وكل شيء، في سبيل الحصول على طفل يحبونه.. وهذا الخسيس يعاملها وأمها بوحشية.. لا يجب أن يسمح له بأن يلقي نظرة على هذه الطفلة بعد الآن.

تنهدت إيبرل مجدداً:

ـ لا أحد يمكنه معارضتك في هذا.. لكن كيف السبيل إلى هذا في ظل القانون.. إنه أمر آخر.

أشار غرايغ للنادل بإحضار فاتورة الحساب، ثم رد بلهجة صارمة:

ـ هناك فرق.

كان غرايغ صامتاً طوال طريق العودة إلى المزرعة. وكان لإيبرل أفكارها الخاصة. أحست بشيء من الأمل والثقة والاطمئنان في قلبها

www.elromancia.com

بالنسبة للطفلة البائسة.. وإذا كان غرايغ قد انضم إلى الدفاع عن قضيتها، فكل ما عانته إيبرل خلال معرفتها به، أصبح شيئاً يستحق الغفران.. ماذا في الأمر لو أنه عابث؟ ماذا في الأمر لو أنه تلاعب بإيبرل؟ ما من أحد كامل على أي حال، وأي صديق لليز هو صديق لإيبرل أيضاً.

قالت إيبرل بخوف قاطعة الصمت العميق: غرايغ؟

رد دون تركيز: هه؟

ـ أنا أقدّر حقاً ما تفعله لأجل ليز.

أزاح نظره عن الطريق ونظر بعمق إلى عينيها:

ـ إذن نحن صديقان بعد طول انتظار.

قالت بخجل:

ـ سأحب هذا.. إن أحببته أنت.

سأل:

ـ إذن هل ستزول كل العقبات التي بيننا؟ المستقبل يبدأ الآن.. ولا رجعة إلى الوراء؟

ضحكت:

ـ أجل.. إن أردت، لا رجوع إلى الوراء.

فجأة حوّل غرايغ السيارة إلى جانب الطريق العام.. فسألته بلهفة:

ـ ما الأمر؟ هل ثقب الإطار؟

نظرت إلى وجهه غير الواضح في النور الخفيف، ووجدته يبتسم.

ـ تقارب ودي من هذا النوع يحتاج إلى احتفال بطريقة ما.

مد يديه بمسك بكتفي إيبرل بشدة ويقبلها بصوت مسموع على خديها، ثم أبعدها ليستطيع النظر مباشرة في عينيها:

ـ الآن، تم ختم المعاهدة.. ولن تستطيعي تغيير رأيك بعد الآن.

أحنت رأسها كي لا تظهر الدموع التي تجمعت في عينيها..

وبحماسة ردت:

ـ لن أغير رأيي.. أعدك بهذا.

هز رأسه بوقار، ثم أخذ يدها وكأنها قطعة أثرية رقيقة، وقبل راحتها بخفة.

بعد أن عادت السيارة المعتمة إلى الهدير وسط ليل الربيع البارد، ابتسمت إيبرل لذكرى «الختم» لاتفاق صداقتهما.. ابتسمت مع أن قلبها كان يتألم لعدم قدرة هذه الكلمة على وصف ما عرفت الآن أنه شعورها الحقيقي نحوه.. إنها تحب غرايغ بوكستر من كل قلبها، وتعرف أنها ستحبه دائماً.. وتعرف كذلك أنها الآن، وهذه الليلة، لن يكون لها العائلة التي طالما حلمت بها.. فإذا لم تحصل على غرايغ، ولن تستطيع إلا كصديق، فما من أحد غيره سيحصل عليها أبداً. ستبقى سيدة عزباء مثلها مثل خالتها مارغريت.. لكن على الأقل سيكون لديها شيء تذكره.. لديها الآن بضع عناقات، والوعد بالصداقة. ويجب أن يكفيها هذا.

هكذا تمت الصفقة المهمة في حياتها، وختمت، والأسابيع القادمة قد تكون مختلفة جداً.. بوصولهما إلى المنزل، أول ما وقع نظرها عليه كان سيارة الجاغوار الفضية، ومالكتها ريبيكا تقف إلى جانبها وذراعاها ملتفتان بغضب. تقدمت ريبيكا نحوهما، وجهها الجميل يجعده الغضب.. ولأول مرة فهمت إيبرل معنى القول بأن شخصاً ما خرج عن طوره غضباً.. أحست بالرهبة لمعرفتها من أين ورثت ابنتها تانيا نوبات الغضب المأساوية.

صاحت بصوت حاد في وجه غرايغ المنقلب:

ـ كان لديك موعد معي!

رد بصوت أجش هادىء:

ـ طرأ عليّ أمر..

ارتفع صوتها أكثر:

ـ أستطيع تصور ما هو! كيف تجرؤ على إبقائي منتظرة وأنت تسلي نفسك مع خادمة حقيرة قذرة؟

ابيضّ وجه إيبرل غضباً.. ومع ذلك حاولت تهدئتها:

ـ ريبيكا اصغ إلي.. لم تكن غلطة غرايغ.. أستطيع شرح الأمر!

استدار غرايغ إلى إيبرل بما بدا لها كراهية تشبه كراهية ريبيكا، وصاح:

ـ هذا يكفي! لا حاجة لأي شرح. وإن كان فلن أحتاجك لقوله عني.. اذهبي إلى منزلك الآن.

حين ترددت، صاح مجدداً:

ـ افعلي ما أقول! هل تريدين أن تزيدي الأمور سوءاً؟

شهقت إيبرل لتهجمه غير المتوقع، ثم استدارت لتركض وكأنها غزال هددت حياته نحو أمان منزلها.. ما إن دخلت حتى رمت نفسها على سريرها، واستسلمت إلى نحيب يقطع نياط القلوب، إلى أن غفت من شدة الإرهاق.

* * *

٩ ـ أريد منك شيئاً واحداً

استيقظت إيبرل في الصباح التالي مع صداع شديد وإحساس بألم شامل. خرجت من السرير لمجرد أن تتصل بالسيدة أغريبا عبر الهاتف الداخلي لتطلب منها توصيل رسالة إلى السيدة بوكستر أنها لن تتمكن من العمل اليوم.. وهكذا بقيت مشلولة الحركة طوال الصباح، وكان الوقت يقارب الظهر حين سمعت دقاً على باب منزلها، تبعه صوت السيدة أغريبا المشاكس:

ـ أين أنت يا فتاة؟

نادت إيبرل بصوت ضعيف:

ـ أنا هنا في الداخل.

وقفت السيدة أغريبا بباب غرفة النوم وبين ذراعيها لفافة طويلة ضيقة.. بدت نشيطة وممتلئة حيوية وابتهاجاً، حتى أن مظهرها أرهق أعصاب إيبرل.

رمت اللفافة إليها قائلة:

ـ انظري ماذا وصل لك.

تناولتها إيبرل بأصابع ضعيفة، وفكت الشريط الأبيض متسائلة دون الكثير من الاهتمام عن الشخص الذي يمكن أن يرسل لها هدية. أيمكن أن تكون نسيت عيد ميلادها؟ لكن بمشاهدتها محتويات العلبة عرفت تماماً من أرسلها.. مع أنه لا وجود لبطاقة.

www.elmenuncia.com

كان في العلبة وردة حمراء وحيدة.. مقطوفة في وقت بدأت الطبقة الخارجية من الزهرة تتفتح. وضعت إيبرل الوردة الباردة على خدها وأغمضت عينيها بعد أن امتلأتا بدموع حارقة.

ابتسمت السيدة أغريبا بخبث:

ـ هل هذه من رجل صديق؟

عند سماعها الجملة، انفجر سد داخل إيبرل وبدأت تبكي بشدة «لا.. ليس رجلاً صديقاً».. لكنه على الأقل «صديق»..

صاحت السيدة أغريبا: إيبرل!

وكأن التأنيب طبيعة متأصلة فيها، فبدأته على الفور:

ـ هاك الآن! عيب عليك! فتاة كبيرة قوية مثلك!

لكنها وهي تؤنب، جلست إلى جانبها في السرير، ووضعت يدها الخشنة بلطف على جبين إيبرل:

ـ هاك الآن.. هاك.. ألست سخيفة وغريبة الأطوار لتبكي بسبب هدية جميلة كهذه؟

شهقت إيبرل وهزت رأسها.. وتمتمت السيدة أغريبا:

ـ أنت فقط متكدرة لما حدث في الأمسية الفائتة.. لكن لا يجب أن تأخذي طباع ريبيكا الحادة بمثل هذه الحساسية. إنها تتجاوز الحدود لأتفه الأسباب.

ابتسمت إيبرل للسيدة أغريبا ابتسامة دامعة، امتناناً لجهدها في مواساتها على حساب ريبيكا. إنها بادرة لطيفة منها.

عادت السيدة أغريبا مجدداً إلى شخصيتها الأصلية، وأمرت إيبرل منجهمة أن تبقى في السرير، بينما حضرت لها طبقاً من حساء الخضار للغداء.. ولكثرة احتجاجات إيبرل، قالت المرأة بكل تسلط وكأنها مديرة سجن:

ـ سوف أحضرها ولسوف تأكلينها.. لذا وفّري أنفاسك لتبريد

الحساء.

عادت إيبرل تغوص في الوسائد وتشعر كأنها مجرمة أنقذت مؤقتاً من الإعدام، ورفعت الوردة الحمراء إلى شفتيها، وهي تعرف أنها تعني تعبيراً عن الاعتذار لانفجار غضب غرايغ في وجهها ليلة أمس.. لكن لا شيء أكثر.. كلماته كانت واضحة بما يكفي: «لا تتدخلي بيننا.. ولا تزيدي الأمور سوءاً، أكثر مما هي».. في المستقبل ستكون حذرة جداً لا تتطفل على حياته الخاصة.

بعد أسبوع من هذا، وفي يوم بارد رطب لا يسمح بالعمل في الخارج، ولعلم إيبرل أن حفلة تدشين المنزل التي ستقيمها السيدة بوكستر أصبحت وشيكة، عرضت خدماتها في المنزل.. وهكذا جلست المرأتان أمام طاولة غرفة الطعام المغطاة بأوراق الصحف، تلمعان أدوات الطعام الفضية..

سألت السيدة بوكستر:

ـ إيبرل، عزيزتي.. ماذا سترتدين ليلة السبت؟

ـ السبت؟

ـ لحفلتي.. حفلة تدشين المنزل.

ـ لكنني اعتقدت أنها بعد ظهر الأحد.

رفعت السيدة بوكستر نظرها عن تنظيف سكين:

ـ لم أخطط لها أبداً ليوم الأحد عزيزتي.. من أين أتتك هذه الفكرة؟

ـ ذكرتها لي ريبيكا، أعتقد.

تمتمت السيدة بوكستر:

ـ هكذا إذن.. لا بد أن الأمر اختلط عليها.. فهي تعيش حياة محمومة، وغالباً ما تخلط الأمور.. حسنٌ أنني سألتك أليس كذلك؟ وإلا لما حضرت الحفلة!

ترددت إيبرل ثم اندفعت:

ـ لطف شديد منك أن تشملني الدعوة، لكنني حقاً لا أعتقد..

ردت المرأة تقاطعها بخشونة:

ـ هراء! يجب أن تأتي.. وأنا أصرّ.. لن نتكلم بالمزيد عن هذا..

هزت إيبرل رأسها مهزومة، ففي الأربعة أشهر التي عملت فيها للسيدة بوكستر تعلمت أن هذه المرأة اللطيفة الساحرة تمتلك إرادة صلبة.. ومعارضتها الآن لا جدوى منها أبداً.

فجأة غيرت السيدة بوكستر الموضوع:

ـ قالت لي ريبيكا إنك ستزرعين شوك النار على ذلك المنحدر قرب بركة السباحة.

ترددت إيبرل ثم ردت مراوغة:

ـ ناقشت الأمر معها ولم أقم به بعد.

هزت السيدة بوكستر رأسها وكأن لا أهمية للأمر. ثم تابعت بطريقة بدت لإيبرل عفوية، مع أنها كان يجب أن تكون حذرة أكثر.

ـ ريبيكا تفكر بغرايغ وبي كعائلة لها.. وهي تؤمن بهذا منذ كانت طفلة صغيرة. كانت أمها مشغولة دائماً اجتماعياً، وبالطبع كان والدها يغيب كثيراً حين كان ووالد غرايغ يبنيان الشركة معاً. ولأنها تظن نفسها من العائلة، لديها ميل لتجاوز سلطتها من وقت لآخر.. وكما أظنني ذكرت هذا من قبل، ريبيكا امرأة متهورة جداً.. لكنها سرعان ما سيكون لها منزلها الخاص لتهتم به.. حتى ذلك الوقت لا أريد أن أحملها عبء إدارة منزلي.

رفعت ماريان بوكستر نظرها عما تفعله، لترى ما إذا كانت إيبرل تصغي إليها، لتجد أنها منتبهة لكل كلمة تقولها. تابعت السيدة:

ـ الآن أنت، من ناحية أخرى، تم انتقاؤك بعناية.. بفضل مواهبك

وعلمك، وحكمك الصائب.. أليس كذلك؟

تمتمت إيبرل مشدوهة:

ـ أتمنى هذا.

سألت السيدة بوكستر:

ـ حسن إذن.. ماذا تنوين أن تزرعي على ذلك المنحدر؟

إذن هذا هو الأمر.. واضح تماماً.. ريبيكا سيكون لها صلاحية إعطاء الأوامر يوماً.. لكن ليس الآن.. وابتسمت إيبرل بارتياح، وأحست باندفاع كي تمد يديها وتحتضن المرأة الرائعة.

ـ فكرت «بالكزيلوسما»، لها أوراق لامعة إنما بدون زهر، وهكذا لن يأتي النحل إليها، وبالتالي فلن تسبب مشكلة لبركة السباحة.

قالت السيدة بوكستر بارتياح:

ـ ممتاز.. هذا بالضبط ما اخترته بنفسي.

كانت الشخصيات التي قدمت لحضور حفلة السيدة بوكستر مساء السبت، من الخليط المعتاد للمجتمع..

ارتدت إيبرل، وبعد طول انتظار، الثوب الصيني الذي أهداه إيان لها منذ سنوات عديدة.. كانت تعرف أنه يناسب طولها، كما يناسب لونه الخوخي شعرها الأحمر القاتم، ومع أنها تعرف أنها تبدو مكتملة، إلا أنها أحست بأن منظرها رهيب.

بالرغم من جو الحفلة البهيج، والطعام اللذيذ، فقد وجدت إيبرل صعوبة في التمتع بكل هذا. إذ طوال الوقت كان نظرها يلاحق غرايغ الوسيم دائماً الذي خطف أنفاسها الليلة.. لم يظهر لها أي رجل من قبل بمثل هذه الأناقة، كما بدا هو ببذلة سهرة سوداء وقميص أبيض.. بينما ارتدت ريبيكا، ثوب سهرة أبيض اللون من الساتان جعلها تبدو كملكة الثلج الأسطورية.. لكن، السبب في ألم إيبرل العميق كان منظر ريبيكا المتعلقة به بألفة، وكأنما هي جزء آخر من جسمه.

خلال اللحظات القليلة التي ترك فيها غرايغ ريبيكا ليحضر لها شراباً، تقدمت إلى إيبرل لتقف معها لحظة وتبتسم بتكبر:

- كم تبدين لطيفة آنسة ساوندرز.. توقعت أن أراك بثوبك الجديد.

تمتمت إيبرل ببرود:

- لم يبدُ لي مناسباً للحفلة.

قالت ريبيكا بابتسامة ماكرة:

- هكذا إذن.. من حسن حظك أن يكون لديك شيء آخر تشعرين أنه مناسب.. أم أنك اشتريته خصيصاً للحفلة؟

حين لم ترد إيبرل، تابعت ريبيكا:

- كم أنت جريئة في مجيئك إلى حفلة غرباء لوحدك.

نظرت حولها، وأضافت باهتمام مزيف:

- أرجو أن يقوم أحد بتقديمك إلى المدعوين.

ابتسمت إيبرل باختصار رداً، فأخفضت ريبيكا صوتها:

- أعتقد أنني مدينة لك باعتذار آنسة ساوندرز.. لقد تصرفت بطريقة لاذعة سخيفة في الأسبوع الماضي.. أعترف بهذا.. وكأن فتاة عاملة جدية مثلك يمكن أن تفكر بأي نوع من العلاقات الشخصية مع رجل مثل غرايغ! أو هو معك؟ لست أدري لماذا ظننت.. حسناً! لقد كنت متكدرة وأنا آسفة، وأعرف أنك ستسامحينني. على أي حال لم يحصل أي ضرر.. وكما لا شك تلاحظين، غرايغ وأنا تصالحنا.. إنه عزيز جداً.. يتساهل مع نوبات غضبي السخيفة.. لكنه يحب المرأة التي تملك روحاً قتالية.

تحركت مبتعدة، تلوّح لإيبرل بيدها مودعة بأصابع زهرية رشيقة.

بقلب متألم، تركت إيبرل الغرفة وخرجت إلى الحديقة.. حيث تنتمي.. لكن حتى الحديقة هي لها لوقت محدود.. بعد انتهاء الحفل

في حزيران.. وبعد إتمام التزامها مع السيدة بوكستر، سوف تستقيل من عملها هنا وتذهب.. إلى مكان آخر. أي مكان، طالما أنها لن تتحمل أن تعيش يومياً مع ألم رؤية غرايغ يصبح لامرأة غيرها.

بخطوات بطيئة متثاقلة، مرت بحديقة الورد في طريقها إلى خميلة على بعد ياردات.. اليوم أواسط نيسان، تفتحت أول وردة فيها.. وردة مذهلة الجمال اسمها «ميراندي».. توقفت إيبرل لتمرر أطراف أصابعها فوق وجهها المخملي الأحمر، واشتمّت عبيرها الحلو.. فجأة جاء من خلفها صوت غرايغ العميق:

- هذا ما أدعوه وردة جميلة.

اعتادت على بروز غرايغ في أوقات وأماكن لا تتوقعه فيها، فاستدارت ببطء وهدوء لترى قميصه الأبيض يضيء مشعاً وسط السواد حوله.. وقالت بهدوء:

- أول وردة للصيف.

أحنى رأسه الأسود الشعر ليتنشق رائحة الوردة، ثم قال:

- إنها مناقضة تماماً للوردة عند بائع الزهور التي تكون باردة ورائحتها ميتة.. أما هذه الوردة، فرائحتها سماوية وبتيلاتها لا تزال دافئة من دفء الشمس.. إنه الفارق بين الحياة والفن، أليس كذلك؟

ابتسمت إيبرل في الظلام، وأحس قلبها بخفة لكلماته.

- مع ذلك فأنا أشكرك على وردة البائع.. كانت لطيفة جداً منك.

أمسك ذراعيها فجأة بيديه، وهزها قليلاً:

- أوه إيبرل.. كنت أفضل أن أعطيك هذه الوردة متفتحة في الوقت المناسب..

ثم شعرت بدفء ذراعيه حولها.. طافت في رأسها أفكار لمقاومته.. تعرف أنها لن تحصل على أكثر من هذا، وأن هذا بحد ذاته مسروق من صاحبته الحقيقية.. قبل أن يستطيع عناقه الذي لا يقاوم أن

يجري في دمها ويضعف إرادتها إلى ما هو أبعد من كل مقاومة، انتزعت نفسها منه مع أن الحركة مزقت قلبها.

في ظل نور القمر الشاحب فوق وجهه الأسمر الغاضب، رأت إيبرل نظرة شوق في عينيه، وأدركت أنها كانت محقة في الابتعاد عنه.. أشاح بوجهه عنها، وبصوت مخنوق قال:

ـ أنت محقة.. أنت محقة.. فهذه ليست الطريقة التي يجب أن تتم بها الأمور.

قالت بصوت عليل:

ـ ولن تتم غرايغ.. تعرف هذا كما أعرفه أنا.

نظر إليها بحيرة:

ـ لكن.. إيبرل.. اتفاقنا.. ظننت..

ـ أن نكون أصدقاء.. لا شيء أكثر.. أم أن تحديدك لمعنى الصداقة مختلف عن تحديدي لها؟

طغى تعبير حانق لا رحمة فيه على وجهه وتصلبت زوايا فمه. تقدم نحوها خطوة فتولاها خوف بارد.. قالت بصوت متألم مذعور:

ـ هناك أناس آخرون يجب أن نفكر بهم! ربما باستطاعتك أن تنسى.. لكن أنا لا أستطيع!

اللعنة على هذا الرجل الذي يضطرها لحماية ريبيكا!

وكأنما كلماتها كانت جرداً من ماء بارد رمي في وجهه.. فوقف مسمراً في تقدمه نحوها.. كان وجهه مختلفاً كوجه غريب، وقال بصوت بارد:

ـ لقد كنت أحمقاً جداً، وأملت أن تسامحيني.. أعطيتك وعداً أن لا يحدث هذا مرة أخرى.. هل لي أن أعيدك إلى المنزل الآن؟

بقلب دامع، سمحت له أن يمسك مرفقها ويقودها نحو المنزل كما فعل في أول لقاء لهما.. آه.. لو أن ذلك اليوم لم يأتِ! لو أنها تستطيع

أن تعود تلك الفتاة التي كانت.. دون أحد تحبه، وبقلب ليس محطماً إلى مليون قطعة.

استأذنها غرايغ بانحناءة مهذبة في المدخل، ودون نظرة إلى الخلف غاب بين الجمع الضاحك الصاخب.. أخذت إيبرل نفساً عميقاً وبحثت حولها عن السيدة بوكستر.. ستجد مضيفتها، تشكرها، ثم تستأذن بالانصراف.. الوقت يقارب منتصف الليل على أي حال ولن يفتقد أحد صحبتها هنا.

بعد بحث في أرجاء المنزل، وجدت إيبرل السيدة بوكستر في مكتبة غرايغ تتكلم على الهاتف. حين رأت إيبرل واقفة بالباب، قالت:

ـ أوه.. هاهي سيد مورهيد.. انتظر قليلاً.

أخذت إيبرل السماعة بالخوف الذي تسببه عادة أي مخابرة في منتصف الليل.

ـ مات.. ما الأمر؟ هل ليز بخير؟

ـ أجل، إنها بخير تماماً إيبرل.. لكن.. ستانون عاد إلى البلدة، واتصل بي منذ دقائق.. قال إنه عاد ليأخذ ابنته التي «سرقها» القانون منه.

شهقت إيبرل، فوسعت عيناها دون قصد عيني ماريان بوكستر التي كانت تقف قريباً منها وتستمع إلى كلامها باهتمام. فسألت بلهفة:

ـ ما الأمر عزيزتي؟

تابع مات يقول لإيبرل إن براد ستانون لم يجد مكان ليز، ولن يستطيع على الأقل قبل الغد بعد أن تفتح مكاتب جمعية أصدقاء الطفولة.. صاحت إيبرل غير مصدقة:

ـ لكن بالتأكيد لن يخبره أحد عن مكانها؟ الجميع يعرف من هو!

تمتمت السيدة بوكستر بقلق:

ـ سأستدعي غرايغ!

وقبل أن تستطيع إيبرل إيقافها، أسرعت خارجة.

قال مات:

ـ إنهم مضطرون حسب القانون أن يسمحوا له برؤية ابنته.. وتعرفين هذا إيبرل..

وأكمل أن عليها أن لا تقلق، لأنه رتب أمر رؤية ستاتون لابنته في مكتب أصدقاء له، وليس في منزل العجوزين إيفنز. وهو واثق من أن القاضي سيوافق معه نظراً للظروف المحيطة بالقضية.. ولسوف يؤخر موعد المقابلة إلى أن يهدأ ستاتون قليلاً ويعود إلى رشده.

رفعت إيبرل صوتها إلى حد الصراخ:

ـ أوه.. ألا يمكنك أن تنسى التزامك الثمين بالواجب ولو لمرة واحدة؟ وماذا عنك؟ أنت أيضاً في خطر! يجب أن تخرج من شقتك فوراً.. إذهب إلى فندق!

رد بهدوء:

ـ وهل نسيت أن عنواني ليس في دليل الهاتف؟ ولهذا السبب بالذات، لن يستطيع إيجاد مكاني لا أنا ولا ليز. لذا تريثي، فلا داعٍ للقلق أبداً.. اتصلت لأعلمك بالأمر فقط، لأنني خشيت إن عرفت من شخص آخر أن لا تسامحيني أبداً.

برّد الألم الصادق في صوت مات غضب إيبرل، فتنهدت:

ـ لا.. مات.. لا يجب أبداً أن تأسف بسببي. أعرف أنني تصرفت بسوء وأنا آسفة. بالطبع أنا شاكرة لأنك أعلمتني بالأمر. لكن، لا يمكن أن تفعل شيئاً لا أستطيع غفرانه لك.. كيف يمكنك التفكير هكذا، وأنت تعرف شعوري نحوك؟

سمعت إيبرل صوتاً خفيفاً، فرفعت نظرها لترى غرايغ واقفاً في الباب وأمه خلفه.. فهل سمع ما يكفي مما قالته ليعرف ماذا يجري؟ لو

أنها تستطيع طلب مساعدة منه، وقد أصبحت ليز الآن في خطر حقيقي.. لكنها كانت قد أقسمت أن لا تتطفل ثانية على حياة الخاصة.. بينما هذه الأفكار تدور في رأسها، كانت كذلك تصغي إلى مات عبر الهاتف. كان يطلب منها أن لا تقلق، وأنه سيبقيها على اطلاع، وأن عليها قضاء يومها مع ليز كالعادة في الغد.. أجابت «لا لن تفعل.. لكنه طالبها بتغيير رأيها من أجل الفتاة التي تنتظر يوم الأحد بشوق.. ثم قالت وداعاً وأقفلت الخط.

مد غرايغ يده إلى الوراء يقفل الباب:

ـ هل لي أن أعرف ما المشكلة؟

ردت:

ـ إنها مسألة شخصية.. لا شيء تزعج نفسك به.

قاطعتها السيدة بوكستر:

ـ أوه.. لكن إيبرل عزيزتي، لقد بدوت مذعورة جداً.. فإذا كنت في مشكلة، أرجوك قولي لنا..

تعالى طرق عنيف على الباب، وسمعت إيبرل ريبيكا تقول من وراء الباب:

ـ غرايغ.. حبيبي؟ هل أنت هنا؟

استدار غرايغ، ونادى باختصار:

ـ أنا مشغول ريبيكا.. اذهبي من هنا الآن.. سأكون معك بعد قليل.

ثم التفت إلى إيبرل يكرر كلمات أمه:

ـ إذا كان بالإمكان أن نساعد بأية طريقة..

ـ شكراً جزيلاً لكما معاً.. أنتما لطيفان جداً.. لكن حقاً، ليس في الأمر شيء.. مسألة شخصية فقط.. حقاً..

وبدأت تتجه نحو الباب.

ضاقت عينا غرايغ متأملاً، ووقف في طريقها لينظر إليها:

ـ هل نسيت أننا سنصطحب ليز إلى كولوما في الغد؟

قطبت:

ـ ربما أجلنا الرحلة إلى يوم آخر.. لا أظنني أشعر برغبة فيها.. سأبقيها هنا معي..

قال بخشونة:

ـ هناك أناس آخرون يجب التفكير بهم إيبرل.. ربما يمكنك أن تنسي هذا لكنني لا أستطيع.

وكان هذا ترديداً لكلامها منذ دقائق في الحديقة.

ـ ربما تحديدك لمعنى الصداقة يختلف عن تحديدي. لكنني وعدت صديقتي الصغيرة بنزهة، ولست أنوي أن أخيب أملها.. هكذا، هل ستبقين في المنزل أم تأتين معنا؟

يا له من متوحش! يعذبها الآن من بين كل الأوقات وبشكل ظالم! ومع أنها كانت تعي أنه يعاود ابتزازها عبر ليز، إلا أنها أدركت كذلك أن ليز ستكون أكثر أماناً مع غرايغ ومعها في كولوما، من أن تبقى مع العجوزين إيڤنز في ساكرامنتو.

ـ حسن جداً.. سأرافقكما غداً.. سأذهب أولاً لإحضار ليز في الصباح الباكر، وبإمكانك اصطحابنا من منزلي أية ساعة تشاء.

وكأنه لم يسمع ما قالته، أمر غرايغ ببرود:

ـ أنت وأنا سنذهب لإحضار ليز في الصباح الباكر.. في سيارتي.. ثم سنتجه إلى كولوما من المدينة مباشرة.. كوني مستعدة في الساعة الثامنة.

كانت متعبة، قلقة، لا طاقة لها على المزيد من المجادلة، فوافقت.. نظرت إيبرل بابتسامة مطمئنة إلى السيدة بوكستر، ثم غادرت المنزل عبر بلب المطبخ، لتجنب الحفلة التي كانت لا تزال في

أوجها.

حين وصلت إيبرل بصحبة غرايغ إلى منزل إيڤنز صباح اليوم التالي ذهلت لرؤية أن ليز لم تكن تنتظر لوحدها متحمسة في غرفة الجلوس، بل ماكس كذلك مع صندوق عدته وفاين تمسك بحقيبتها السوداء. بعد أن استقرت المرأتان في المقعد الخلفي لسيارة اللينكولن الواسعة وليز في الوسط، همست فاين لإيبرل:

ـ اتصلت السيدة بوكستر في السابعة صباحاً، لتسأل إذا كان بالإمكان أن نأتي، أنا وماكس، لمساعدتها في تنظيف المنزل بعد حفلة الأمس.. بدت لنا سيدة لطيفة جداً، إيبرل.. أليس كذلك؟

كانت إيبرل مذهولة، لذا لم تستطع سوى أن تهز رأسها.. وما إن وصلت أسرة إيڤنز إلى المزرعة، وتعرفا على السيدة بوكستر والسيدة أغريبا وانطلق الثلاثة في نزهتهم، حتى سنحت الفرصة لإيبرل بأن تذكر الموضوع.. وبدأت:

ـ كنت مندهشة جداً حين عرفت أن الزوجين إيڤنز قادمان إلى المزرعة هذا الصباح.

رد: أوه.. حقاً؟

ـ أعتقد أنك أخبرت أمك عن لقائك بهما؟

ـ هذا صحيح.

ـ فهمت.. ظننت أن السيدة بوكستر كانت ستعلمني لو أنها خططت لاستئجارهما بين الحين والآخر.

ـ لا أعتقد أنها تحتاج إلى إذن منك.

احمر وجه إيبرل غضباً، وردت عليه ساخطة:

ـ بالطبع لا! وأنت تعرف أنني لم أعن هذا! إنه شيء فظ، أن تقول هذا!

نظر غرايغ إليها من فوق رأس ليز، ثم أدار اهتمامه إلى الطريق:

ـ أنا آسف.. أنت على حق طبعاً.. كانت أمي ستذكر هذا لك، ما عدا أن المسألة حدثت فجأة.. بعد مغادرة الضيوف ليلة أمس، أدركت أن هناك تنظيفات أكثر بكثير من قدرتها وقدرة غوين، فاقترحت أن تتصل بالعجوزين.. وتم كل شيء على ما يرام.. وبالتأكيد أنت مسرورة لأن صديقيك سيقضيان يوماً هادئاً في الريف.

كانت إيبرل صامتة، تفكر بكلامه بحثاً عن معانٍ مخبأة، ولم تجد شيئاً.. ثم ابتسمت:

ـ أجل.. لا أستطيع التفكير لهما بشيء ألطف من قضاء يوم في الريف.

اطمأنت لأن ثلاثة من أحبائها سيمرحون ولو ليوم على الأقل، فأدارت اهتمامها إلى نزهة اليوم. وراحت تشير إلى ليز كيف يتغير منظر الأراضي وهم يبتعدون عن ضواحي المدينة، نحو السفوح الجميلة الريفية لجبال السيبرا نيڤادا المكللة بالثلوج..

قالت ليز:

ـ أذناي مسدودتان.

ردت إيبرل:

ـ إنه الارتفاع عزيزتي.. ابتلعي ريقك وستنفتحان.

كانوا يتجهون نحو الأعلى بصحبة غابات السنديان والشربين والأرز الذكي الرائحة، التي تقف هناك كما وقفت لآلاف السنين، على جانبي الطريق العام المتعرجة بين التلال الصخرية.. بوصولهم إلى كولوما، بدت وكأنها غابة قائمة بذاتها.. وكانت الأراضي المخصصة للنزهات والتخييم هادئة باردة تحت مظلة الأشجار الباسقة القديمة.

قالت ليز بحماس كبير:

ـ انظر غرايغ! لا بد أن هذا هو مجرى النهر الذي وجد فيه الذهب!

رد غرايغ:

ـ هذا صحيح.

أوقف السيارة في فسحة على بعد أمتار من المنشرة القديمة. كان هناك مجموعة زوار متحلقين حولها يراقبون دولاباً كبيراً يعمل، ويصغون إلى حارس الغابة الوسيم، يعيد سرد قصة تلك الأيام العظيمة.. وانضم الثلاثة إلى الحلقة للإصغاء.

أحست إيبرل بدفء يغمر قلبها وهم يعودون إلى السيارة ليتوجهوا إلى المتحف، لدرجة آمنت أن هذا اليوم الذي كان مقدراً له أن يدمر أعصابها من القلق والتوتر، سيتحول إلى يوم مرح سعيد.

في مكان الشرف، داخل الغرفة الرئيسية للمتحف، كان هناك عربة قديمة.. بدا وكأنها سلكت في أيامها الكثير من الرحلات.. كانت مصنوعة من الخشب وتنتصب فوق إطارات من حديد، ويبدو داخلها أصغر بكثير من معظم السيارات الحديثة، مع ذلك فقد كانت معدة لركوب ستة أشخاص، وطبعاً، دونما ارتياح..

قربها، وسط صندوق زجاجي، وفوق وسادة من المخمل الأحمر، رقاقة صغيرة لا شكل محدد لها من الذهب، كانت السبب في بدء المغامرات الكبيرة عام ١٨٤٩..

بعد أن نقبت ليز كل زوايا المتحف، اصطحبهما غرايغ إلى فندق «نيڤادا هاوس» القديم الساحر للغداء. حيث بهرت ليز بالديكور العتيق، ورؤوس الثيران البرية الضخمة المعلقة على الجدار. كانت الجدران والسجاد بلون الشكوكولا البني، تزيد من إبراز لون أغطية الطاولات الحمراء والأطباق البيضاء.. جلست إيبرل تسند ظهرها إلى الكرسي بسعادة تاركة حرية الطلبات لليز وغرايغ.

بعد ساعة، كانت ليز تغط في نوم عميق داخل السيارة المريحة المكيفة.. وبدا غرايغ مشغولاً بقيادة السيارة.. ومع كل ميل تتقدمه السيارة الكبيرة باتجاه المدينة، كانت معنويات إيبرل المرحة تتراجع..

ودون أن تعي، انطلقت منها تنهيدة ثقيلة مضطربة.

أعادها الإحساس بيد غرايغ على يدها إلى ذاتها.. نظرت إليه متسائلة وهي تسحب يدها منه بلطف.. حين استدار ليلتقي عينيها، كان يبدو على وجهه شيء أنذرها بالمتاعب.

قال بلهجة رسمية:

- إيبرل.. هناك أمر يجب أن أخبرك به.. حين نصل المنزل، لا شك أن أمي ستكون قد أخبرت الزوجين إيثنز ما تعرفينه وما أعرفه وما يعرفه الجميع، عدا ليز.

صاحت بتعجب: ماذا؟!

على الفور أسكتها غرايغ بإشارة من رأسه إلى الطفلة النائمة، وسألته بصوت منخفض:

- لكن كيف عرفت؟

بدا الخجل على وجهه بشكل غير اعتيادي، وهذا لوحده رمى إيبرل في حيرة أكبر.. تصوروا ما يلزم لجعل المتعجرف غرايغ بوكستر يحس بالخجل!

قال مدافعاً عن نفسه:

- لقد استخدمت حريتي للاتصال بمات ليلة أمس بعد خروجك.

شهقت:

- لكنني قلت لك إن الأمر شخصي! كيف تجرؤ على التدخل؟..

أشار بيده قلقاً:

- لقد فكرت طويلاً قبل أن أتصل به، لئلا يكون الأمر شخصياً بينكما. لو لم تكن أمي واثقة أنه أكثر من هذا، أؤكد لك أنني ما كنت تدخلت.. لكن كان لدي إحساس أن للأمر علاقة بليز.. هكذا خاطرت واتصلت.. وأخبرني مات بأمر ستانون، ورأيت أن العجوزين هما صيد سهل فأخرجتهما من هناك بجعل أمي تتصل وتطلب

مساعدتهما.. ولم أجرؤ على قول الحقيقة لهما خوفاً من ذعر فاين.. ولم أخبرك لأنني خشيت أن تكون ردة فعلك كما هي الآن.

لم تعرف إيبرل بما تفكر أو تشعر، فمن فضائله التي تعرفها عنه مسارعته في التدخل وتولي زمام الأمور. قالت:

- لست أدري كيف سأتمكن يوماً من شكرك غرايغ لكل ما فعلته اليوم.. سأكون مدينة لك إلى الأبد.

نظر إليها من زاوية عينه، وقال:

- في الواقع.. هناك شيء تستطيعين فعله لي.

قالت بحرارة:

- قل لي ما هو.. وسأبذل جهدي لأرضيك.

- أخبرني مات الكثير عن حالة ليز ليلة أمس.. وأنه لا يمكن تبنيها إلى أن يعطي والدها الإذن بهذا.

ردت بمرارة:

- وهذا ما لن يفعله.

- أجل.. هذا ما قاله مات كذلك.. قال إن ستانون يعتبر أن هذه هي الورقة الوحيدة التي لا يزال يملكها: اعتراض سبيل سعادتها ومستقبلها.. حتى ولو لم يكن يريدها لنفسه.. لكنني أعتقد أن بالإمكان «إقناعه».. وإن استطعت أن أقنعه بالتخلي عنها، فستتمكنين، أنت إيبرل من تبنيها، وستصبح آمنة.

قفزت الدموع إلى عيني إيبرل، فقد تفوه غرايغ بالحلم الذي حلمت به ملايين المرات.. لكنه لا يعرف مدى العوائق الكامنة في طريق تحقيق هذا الحلم.. قالت:

- أتخلى عن كل شيء أملكه الآن وفي المستقبل لو كان بالإمكان أن يحدث هذا غرايغ.. لكنني سأواجه أوقاتاً صعبة في إقناع المحكمة.. دون عمل ثابت..

www.elromancia.com

تنهدت ثم تابعت بأسى:

ـ . . لا. لن يسمحوا لي بتبنيها. . لكن قد يستطيع شخص آخر. . هذا إن جعلت والدها يوقع على الأوراق اللازمة.

أدارت عينين مشعتين أملاً ولو ضئيلاً إلى غرايغ، وأكملت:

ـ سيكون رائعاً أن تستطيع.

سألها:

ـ وماذا لو كنت متزوجة؟

ترددت ثم قالت:

ـ لكنني لست متزوجة.

ـ قلت إنك ستفعلين ما بوسعك لإرضائي إيبرل. . وأنا أطلب منك الزواج. . فهل تقبلين؟

* * *

١٠ ـ حبي وردة حمراء

ردت إيبرل ببرود مصطنع:

ـ بالطبع لا!

جاء ردها بعد لحظات من السؤال. . لكن بمقياس القلب للزمن، تعذبت إيبرل طويلاً قبل أن ترد. . كم من القسوة والظلم أن يُقدم لها أمنية قلبها، ومع ذلك لن تتمكن أن تقبلها.

أجل! أجل! إنها تريد الزواج منه. . أن تراه كل يوم. . أن تعيش معه في ذات المنزل. . أن تحمل بأطفاله. أجل، إذا كان يحبها ويريدها. لكن طلبه الزواج منها هو لأجل ليز فقط. . ومع ذلك، فالموافقة على زواجها منه لأجل ليز تقف في وجهها حقيقة لا تقبل الجدل: الزواج مع حب من جانب واحد محكوم عليه بالفشل مسبقاً.

كانت إيبرل تعي تعاظم محبة ليز وتعلقها وثقتها بغرايغ في الأشهر الماضية. . ولو أصبح والدها فستعطيه الطفلة قلبها بالكامل. . ثم سيكون الأمر مدمراً لها حين تفقده من جديد كما لا بد أن يحصل بعد سنة أو سنتين، أو خمس أو سبع. حين يحدث هذا. . لن يتحطم قلب إيبرل فقط، بل وهذا هو الأسوأ، قد لا تستعيد ليز عافيتها أبداً بعد فقدانه.

ولأجل مصلحة غرايغ كذلك. . يجب أن ترفض إيبرل ما تريده أكثر من أي شيء في العالم كله! إنه على وشك الزواج من امرأة يحبها

www.elromancia.com

فعلاً . . وأحبها منذ سنوات طويلة . . ألم تقل غوين أغريبا ان الاثنين، كان يمكن أن يتزوجا منذ أمد بعيد لولا زواج ريبيكا السابق؟ ثم هناك تانيا التي تحتاج بشدة إلى أب، ولها الأفضلية على ليز في حب غرايغ وحمايته.

ماذا لو رمت إيبرل بكل المنطق السليم أدراج الرياح، وتزوجت غرايغ، على أمل أعمى بأن ينجح هذا الزواج بطريقة ما؟ ليس هناك ضمانات بأن يستطيع إقناع براد ستانون، أن يوقع أوراق التبني . . وإذا فشل . . كما فشل الكثيرون من قبله . . يكون قد تحمل على عاتقه عبء امرأة لا يحبها، وحرم من طفلة قام لأجلها بمثل هذه التضحية . .

لا . . إنها فكرة ميؤوس منها . . هناك سبب واحد يؤيدها: حب إيبرل العميق لغرايغ . . لكن هناك آلاف الأسباب لرفضها . . أسباب لا تجرؤ على ذكرها خوفاً من أن يوقع بها فيضعف بهذا قرارها المهزوز بأن تفعل ما هو الأفضل للجميع.

كررت بيرود:

ـ بالطبع لا . . يا لها من فكرة مجنونة.

بعد صمت قصير كئيب، التوى فم غرايغ بتكشيرة كان يمكن أن يكون المقصود منها ابتسامة ضعيفة . . كان صوته خشناً متقطعاً بإحساس أليم، ربما يكون كرامة مجروحة:

ـ حسن جداً . . لم نغامر بشيء ولم نكسب شيئاً . . بدت لي فكرة جيدة للحظات.

ردت إيبرل بلطف أكثر:

ـ أوه . . إنها فكرة جيدة فعلاً . . ولقد فكرت فيها أكثر من مرة . . لكن ليس معك.

أدركت كم أن كلامها كان مهيناً، فأضافت:

ـ أعني . . مع شخص آخر . .

ـ أتعنين مات؟

جاهدت إيبرل لتمنع دموعاً هددت بافتضاح أمرها:

ـ أجل . . بالطبع . . مات.

ـ فكرت بهذا طبعاً . . لكن بما أنكما لستما على استعداد . . أو ربما لا وجود لاستعداد أبداً، فكرت أنك ربما . . أو هو . . حسن جداً . . هذا ليس من شأني . . مع ذلك . . ولكي أزيل العوائق من الطريق لك، أو لشخص آخر، أنوي أن أنفذ ما قلته: سأقنع الوالد المجنون بأن يتخلى عنها . . وبما أنه لن يُسمح للعجوزين إيڤنز باستبقائها معهما إلى الأبد . . فيجب أن تمنح فرصة للاستقرار ضمن أسرة تحبها كما تستحق.

بوصولهم إلى المزرعة، واجهت إيبرل أخباراً أكثر سوءاً أضيفت إلى بؤسها الكامل. مع دخولهم إلى ردهة المنزل، واجهوا فريقاً ثائراً مهتاجاً مؤلفاً من العجوزين إيڤنز، غوين أغريبا، وماريان بوكستر . . كلهم على ما يبدو كانوا يصغون إلى صوت اقتراب السيارة.

وكأنما حسب ترتيب مسبق، اصطحبت غوين ليز إلى المطبخ تعدها بالحلوى والحليب . . وما إن أصبحت بعيدة عن السمع، حتى انفجرت ماريان بوكستر بالبكاء وأخذ الجميع يتكلمون معاً.

ما تبين أخيراً، هو أن براد ستانون وقف متربصاً وصول أول عامل في مكتب جمعية أصدقاء الطفولة في الصباح الباكر، أول الواصلين كان موظفة استقبال شابة جديدة في عملها، وكانت أطباعه الخشنة السيئة كافية لأن تفزع الفتاة وتجعلها تعطيه العنوان الذي يسعى إليه . .

بعد مغادرته مع عنوان إيڤنز، جمعت الفتاة ما أمكنها من هدوء لتتصل بمات الذي سارع للاتصال بالبوليس . . ومما زاد في غضب ستانون عدم وجود أحد هناك، ولم يكن لديه وقت لأن يحطم أكثر من النافذة الأمامية، ويمزق مفروشات غرفة الجلوس ويرمي القمامة على

www.elromancia.com

كل أجزاء المكان، قبل وصول مات والبوليس.. وألقي القبض عليه وهو يصيح بتهديدات رهيبة، ووضع في سجن المقاطعة.

تكلمت فاين وقد هدأت قليلاً الآن:

ـ أنا لا أهتم البتة بما تملكه، طالما نحن سالمين. والشكر كله في هذا يعود لك سيد بوكستر.

واستدارت نحو ماريان:

ـ وأنت كذلك.. سيدتي.. سهلت لنا أمر مجيئنا إلى هنا هذا الصباح.. دون أن نشك في شيء.. ليباركما الله معاً. لما فعلتماه لنا اليوم.

تلت إيبرل صلاة صامتة وهي ترتجف فزعاً لما كان أصاب العجوزين هذا الصباح، شاكرة الله على كل ما فعله غرايغ. وتقرر أن يذهب ماكس وغرايغ إلى المنزل ليريا ما يمكن إنقاذه.. لكن، في الوقت الراهن، سيبقى ثلاثتهم في المزرعة.

خلال الأسابيع التي تلت، كانت إيبرل سعيدة بحيائها ما عدا ظل قاتم يحوم فوق قلبها.. كان موعد الحفلة الكبيرة لا يبعد سوى أيام، وقد أصبحت الحديقة أجمل بكثير مما تصورت إيبرل..

خلال هذه الفترة من الزمن، علمت إيبرل بإعجاب وفرح أن الحفلة الخيرية لم تكن سوى لجمعية أصدقاء الطفولة. وأمام ذهول إيبرل لهذا الخير، قالت ماريان بوكستر:

ـ أنا آسفة عزيزتي.. لقد اعتقدت أنك تعلمين! هذه أنانية مني، لكنني كنت أفترض أن جميع المقربين مني يعرفون علاقتي بالجمعية، فأنا عضو مؤسس فيها والآن رئيسة مجلسة الإدارة.

لكن، مهما كان الأمر، فقد كان هذا لخدمة الجميع.. ولأن إيبرل أشارت أمام السيدة بوكستر إلى حب السيدة أغريبا للأولاد، فقد عُرض عليها مركز الأم المشرفة المقيمة في ملجأ الجمعية.. وبعد فترة من

التفكير، قبلت غوين بترك منزل بوكستر في عهدة الزوجين ايڤنز، وتسلمت الإشراف على دار الأطفال، قائلة إنها تستطيع الإنتظار هناك إلى أن تحتاج ريبيكا مجدداً إلى مدبرة منزل، وترسل في طلبها..

هكذا تم استخدام الزوجين إيڤنز رسمياً في المزرعة. فاين، كمدبرة منزل وطاهية، وماكس مشرف عام على الصيانة..

لكن كان أفضل تطور هو أن براد ستاتون أصبح يسكن في الناحية الأخرى من القارة بعيداً عن ابنته، لأنه أعطى القانون سبباً لسجنه، ولم تعد ليز ابنته.

قبل رحيله إلى شواطىء فلوريدا، وقع أوراقاً أعطت إذناً منه بتبني ليز.. وأوراقاً أخرى كذلك يعترف فيها أنه فهم أن وجوده، ولو لوقت قصير، في كاليفورنيا دون طلب إذن خطي من وصيها القانوني، إيبرل ساوندرز، ستكون نتيجته العودة إلى تطبيق حكم السجن المعلق تنفيذه مقابل موافقته على الشروط التي تم ذكرها.

سألت إيبرل مات بعد إبلاغها الخبر المفرح:

ـ لكن كيف توصلت إلى إجباره على الاستسلام تماماً؟

ابتسم مات:

ـ لم يكن أنا من أجبره إيبرل.. وآسف أن أقول.. إنه غرايغ.. لا هو ولا براد اعترفا بشيء، لكنني أظن أن غرايغ قدم له عرضاً لا يمكنه رفضه.. إذا فهمت ما أعني.

ـ أتعني.. رشوة؟

ـ ربما.. أو ربما، جزئياً، بعض المال. لكن الأهم كما أعتقد أنه عرض عليه التحرر من الخوف من أشياء تحدث فجأة خلال الليل.

ارتجفت بخوف..

ـ أوه.. هكذا إذن.

ـ إنه رجل من بين مليون إيبرل.. هذا الرجل.

أخفضت نظرها، تفكر بالمستقبل المشرف الآن لليز.. ثم تمتمت:

ـ أجل.. أعرف هذا.

رأى مات النعومة في عيني إيبرل، وقال مفكراً:

ـ كنت متأكداً من أنك تعرفين.

كان الوقت منتصف حزيران، بضعة أيام قبل الحدث الكبير. وكانت إيبرل تعمل في الحديقة كالمجنونة، وتشرف على آخر التفاصيل، كي تكون الحديقة مصدر فخر لماريان بوكستر.. منذ تولت غوين مسؤولية الأولاد في الملجأ، لم تعد ريبيكا تظهر كثيراً في المزرعة، لذا شعرت بشيء من الدهشة والإحباط، عندما سمعت هدير الجاغوار الفضية تسرع في الطريق الداخلية المرصوفة الآن. قصت إيبرل وردة أخرى واستقامت، تمسح العرق عن جبينها، وتراقب ريبيكا تتمايل بخفة نحوها، مرتدية تنورة بيضاء مكسرة، وبلوزة دون أكمام.

ـ مرحباً هناك.. لا زلت تعملين كما أرى.

فكرت إيبرل وهي تقترب أن هناك شيئاً مختلفاً على وجه ريبيكا.. العضلات حول فمها أقل تشدداً، وشفتاها أكثر امتلاءاً.. ثم فجأة، أدركت أنها وللمرة الأولى منذ تعارفتا، تبدو ريبيكا قانعة وسعيدة حقاً.

قالت ريبيكا تنظر حولها بتعجب:

ـ يجب أن أقول إنك قمت بالعجائب في هذا المكان.. لم أكن لأصدق أن هذا ممكن.. حين جاء بي غرايغ لأراه، قلت له: حبيبي لا يمكن أن تكون جاداً! المكان لا يصلح حتى للفلاحين! لكنه الآن.. انظري إليه.. المنزل جميل، والحدائق رائعة.. سيكون المكان مخبأ حلواً رومانسياً لقضاء العطلات.

كبتت إيبرل ردها ممتنة لأنها سرعان ما لن تعود بحاجة لأن ترى

ريبيكا، وابتسمت لها بأدب.. فسألتها الأخرى بصوت مشرق جميل:

ـ كيف رأت عائلتك الصغيرة من المشردين الحياة في الريف؟ هل استقروا جيداً؟

فكرت إيبرل: يا لهذه المرأة الشريرة! لكنها تمتمت:

ـ كلنا سعداء هنا.

ـ هذا ما ظننته.

وتقدمت إلى شجيرة قريبة لتنتزع وردة، فعضت إيبرل لسانها لمنع نفسها عن الصراخ في وجه السيدة المستقبلية للمنزل كي تبعد يديها المدمرتين عن الورود.

استدارت ريبيكا فجأة، تحرك كتفيها وتلوّح بشعرها الطويل بدلال، مع أن لا وجود لأحد ليرى هذه الحركة، ثم قالت مفكرة:

ـ أتعلمين.. الحديقة رائعة بالفعل الآن.. في الواقع إنها أكثر روعة من إضاعتها على حفلة خيرية.. فكري كم ستكون حفلة زفاف ساحرة هنا.. مثلاً هناك قرب المشتل الزجاجي القريب، حيث يتبادل العروسان القسم.

أصيبت إيبرل بالذهول المخرس مع دموع جمدت في مآقيها وحلقها، ولم ترد.. فاستدارت ريبيكا إليها:

ـ ألا تستطيعين تصورها؟.. أنظري، الأوركسترا يمكن أن تعزف هناك..

ولوحت بذراعها نحو المنزل، لكن إيبرل كانت قد تحملت كل ما تستطيعه.. وبصوت غمغمة دون كلام، بدأت تبتعد.

وقفت ريبيكا تنظر إليها بدهشة، وبصوت ساخط نادتها:

ـ المشكلة معكم، أنتم العاملون، أن لا مخيلة لديكم!

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الكبير، كانت إيبرل قد أتمت كل ما هو ممكن لتكون الحديقة جاهزة للحفلة.. وجاء دورها وليز

لتتحضرا. . حين أخرجت إيبرل الفستان الحريري المليء بالورود الخوخية والمشمشية من الخزانة، احتجت ليز:

ـ لكن، إيبرل ظننت أننا سنكون توأماً!

ـ لا حبيبتي. . ارتدي أنت ثوبك الذي قدمه غرايغ لك. . لكنني قد أضطر للمساعدة في تقديم الطعام وأخشى أن ألطخه.

ترددت ليز ثم قالت بحزن:

ـ سوف تجرحين مشاعره إيبرل.

ردت بابتسامة متصلبة، لإخفاء ألم قلبها:

ـ أوه. . هراء. . حتى أنت لن تلاحظي هذا.

في يوم ما، ربما بعد سنوات وسنوات، قد يطاوعها قلبها بأن ترتدي الفستان المكسيكي، حتى ولو كانت ريبيكا هي التي اختارته. . لكن ليس الآن، وليس اليوم، لن تتمكن من تحمله.

بعد قليل، كانتا موضع إعجاب في المنزل. . ليز بفستانها الأبيض، والشريطة الزهرية على شعرها الرملي اللون، ومع وهج الجمال الحقيقي على وجهها المسمر والمرتاح. . حضنتها فاين بعينين دامعتين، وقالت بغصة في حلقها:

ـ لم أشاهد في حياتي سيدتين شابتين بمثل هذا الجمال.

كانت السيدة أغريبا أول الواصلين في الرابعة تماماً، واستقبلها الجميع بحرارة. . ومع بدء تبادل الأحاديث قبل الحفلة في المطبخ، خرجت ليز وإيبرل تفتشان عن السيدة بوكستر.

كان ملعب التنس قد أعد ليكون باحة رقص، مع فرقة موسيقية صغيرة تعزف الموسيقى، وأخذت ليز تتحرك بابتهاج في رقصة مرحة على إيقاع الفرقة وهي تحاول ضبط إيقاع آلاتها.

قالت إيبرل:

ـ اذهبي عزيزتي وألقي نظرة عليهم إذا أحببت.

لمحت إيبرل السيدة بوكستر تتحدث إلى السقاة الذين حضروا طاولات الطعام والشراب في الجانب الشمالي من المرجة الوسطى، التي من السهل أن يصل إليها معظم المدعوين.

لاحظت ماريان بوكستر تقدم إيبرل نحوها، فمدت يديها لها لتحضنها وتقبلها بحرارة، قبل أن تبعدها عنها قليلاً لتتفحصها:

ـ أنت فاتنة تماماً إيبرل، عزيزتي. . هذه الألوان تليق كثيراً بشعرك وبعينيك الرماديتين. . ستكونين أجمل امرأة هنا دون شك.

كانت ماريان بوكستر ترتدي فستاناً من «القوال» البنفسجي الفاتح، بسيط التفصيل، يبرز لونه لون شعرها الكثيف الأبيض، ويعطي جمالاً لبشرتها الزهرية الشقراء.

قالت إيبرل:

ـ وأنت تبدين رائعة كذلك.

كانت تشعر بالحزن لأن صداقتها الدافئة لهذه المرأة ستنتهي. . وستفتقد للدعم العاطفي الذي طالما تلقته منها، وإلى أحاديثهما الهادئة. . فخلال الستة أشهر المنصرمة، أحست إيبرل ولأول مرة في حياتها، معنى أن يكون لها أم.

قالت ماريان:

ـ إيبرل، قبل أن يبدأ الضيوف بالتوافد، أريد شكرك لكل ما فعلته. . ففي ستة أشهر، قلبت أرضاً مهملة إلى جنة. ولو استطاع إيان هيوشو أن يرى ما فعلته هنا، لرقص قلبه فخراً.

أدارت إيبرل وجهها لتخفي الدموع في عينيها. . فهذا التقدير الكامل كان أكثر مما يتحمله قلبها المثقل في الوقت الحاضر. . وأجابت بصوت مختنق:

ـ أنا سعيدة لأنك راضية عن عملي، سيدة بوكستر. . لكن بالمقارنة بما فعلته لليز، أنا لم أفعل شيئاً أبداً. . فبدون مساعدة غرايغ

ومساعدتك، كان سيعجز جميع من يحبها عن إنقاذها.

ردت السيدة بوكستر بابتسامة صغيرة:

- حسناً عزيزتي إيبرل.. هذا هو معنى الصداقة.. وبمناسبة الحديث عن الامتنان، ها قد أتى غرايغ.. سأسلمك له الآن وأهتم بضيوفي.

كانت إيبرل متأثرة بتقدير المرأة لها، حتى أنها لم تلاحظ كم كان غرايغ وسيماً بشكل غير عادي، ببذلته العاجية اللون وقميصه الأسمر المفتوح الياقة. وعلى الفور أظهر اهتمامه بمظهر إيبرل.

- هذا فستان جميل جداً، لكنني مندهش لماذا لم تقنعك ليز بارتداء الفستان الذي أهديتك إياه.

شعرت بإجفال لأنه لا زال يظنها لا تعرف المصدر الحقيقي لهديته، فقالت باستخفاف:

- في الواقع، الفستان لا يناسبني تماماً، وأخشى أن تكون ريبيكا قد أساءت تقدير مقاسي.

نظر إليها باهتمام وحذر، ثم قال:

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً إيبرل.

ردت بحدة:

- ولماذا لا يكون صحيحاً؟ أعتقد أنني أعرف أفضل منك ما يناسبني وما لا يناسبني.

- لا دخل لريبيكا باختيار أي فستان من الاثنين.. وأراهن أنني أعرف كل مقاييسك بدقة.

احمرت إيبرل غضباً لملاحظته.. ولتغطية حرجها، صاحت:

- إذن.. أنت تدعو ريبيكا كاذبة؟

- لا إيبرل، أنت التي تدعينني بالكاذب.. ما دخل ريبيكا في كل هذا؟

أدارت وجهها بسرعة غاضبة.

أخذ غرايغ وجهها بين يديه، وأدارها نحوه. ثم قال عابساً:

- أعتقد أنني أستحق رداً.. وأطالب به فوراً.

تمتمت رافضة لقاء عينيه:

- أخبرتني أنها هي التي اختارته.

- وهل قالت هذا حقاً؟

- حسناً.. ليس بكلمات محددة.. لكن لم يكن هناك شك.. أوه.. لا بأس في هذا! لا يهم على أي حال.

قال مفكراً:

- فهمت.. في الواقع أنت على حق.. لا يهم من اشترى الفستان، فهو لا يناسب هذه الحفلة على أي حال.. لأنه فستان عرس.

حدقت إيبرل به وفمها مفتوح دهشة.. لماذا لم يخطر ببالها من قبل أنه من غير المعقول أن تختار ريبيكا لإيبرل من بين كل الناس، فستاناً من طراز كانت ترتديه العروس قديماً؟ لكن ما إن تشكل الرد في رأسها حتى أمسك غرايغ بمرفقها وسار بها، قائلاً بعفوية:

- أنا أتضور جوعاً.. تعالي، دعينا نأكل شيئاً.

سمحت إيبرل له بأن يقودها، وكانت لا تزال مشوشة الفكر، نحو طاولات الطعام المستطيلة المغطاة بمفارش بيضاء كالثلج، والتي كانت محط الأنظار في المرجة..

مع أنها لم تكن تشعر بالشهية، وضعت إيبرل في طبقها بضع قطع خبز محمص مع الكافيار، وقطعة بطيخ أحمر. ثم، وكأنما لا إرادة لها، لحقت بغرايغ وهو يبتعد عن الطاولات إلى حديقة الورود.

وقفا لوحدهما في مكان هادىء للحظات.. من على بعد، سمعت إيبرل ضحك السابحين وهم يغوصون في الماء.. كان المدعوون يتمتعون جيداً بالحفلة، وراحت إيبرل تراقبهم يضحكون ويتبادلون

الأحاديث. . إنه يوم عملت جاهدة لأجله. . وستذكره على الدوام.

فجأة تكلم غرايغ مخترقاً أفكارها:

ـ من المؤسف جداً أن لا يكون مات معنا اليوم.

نظرت إيبرل إليه ثم قالت بغير ارتياح:

ـ أجل، وأظن أن شيئاً مهماً طرأ وأبقاه بعيداً.

قال:

ـ إذا كنت تسمين الذهاب إلى سان دييغو لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع أهل صديقته الجديدة، أمراً طارئاً.

احمر وجه إيبرل بعمق، وأطلقت تنهيدة شاهقة. . كم من المحرج أن يكشف خدعتها السخيفة بهذه الطريقة. لا شك أنه يعتقدها بلهاء طبعاً، أو عانساً عصبية المزاج تتظاهر أن هناك حبيباً لا وجود له.

قال غرايغ بجرأة:

ـ على وجه العموم، كان مات منجم ذهب من المعلومات لي. ولست أدري ماذا كنت سأفعل بدونه.

تقدم زوجان أنيقان جميلان نحوهما، وبعد تقديم غرايغ إيبرل لهما، حاولت التهرب. ولكنه فهم مرادها فامتدت يده لتمسك بذراعها. . وبينما الأصدقاء الثلاثة يتحدثون، وقفت إيبرل عالقة حيث هي تغلي من غيظها. . ثم ودعهما الزوجان وابتعدا.

ترك غرايغ ذراع إيبرل، ثم نظر حوله بعفوية وقال:

ـ تبدو الحديقة ممتازة إيبرل. . لقد قمت بعمل جبار. يبدو لي، وأتساءل ما إذا كنت ستوافقين، أنه سيكون موقعاً رائعاً لإقامة عرس؟

خفق قلب إيبرل. . ألا يكفيه أنه احتل قلبها وحياتها؟ هل من الضروري أن يؤلمها بعرضه عليها خطط زفافه؟

ردت بصوت مرير:

ـ أجل. . هذا ما قالته ريبيكا. . تعتقد أن قسم الزواج يجب أن يتم

قرب المشتل الزجاجي هناك. . فهل تحدّد الموعد إذن؟

نظر إلى ساعته:

ـ أجل. . وأعتقد أنه في هذه اللحظة بالذات. . تم القرار.

ـ ماذا. . أي قرار؟

ـ ريبيكا في هذه اللحظات عروس محمرة الوجه في أكابولكو.

ـ لا. . ستتزوجك أنت. . هنا. . وقريباً. .

لكن، حتى وهي تقول هذا، أدركت فجأة أنها لم تر ريبيكا اليوم. . مع أنها كانت متأكدة من أنها ستكون هنا، وسرعان ما ستطالب بأملاكها.

مرت نظرة غريبة على وجه غرايغ بدت كارتياح.

ـ أوه. . لا إيبرل الجميلة. . ريبيكا ليست المرأة التي ستتزوجني هنا. . وقريباً. . ولم تكن أبداً. . فما الذي أعطاك مثل هذا الانطباع؟

كان سخط إيبرل عظيماً لسؤاله، حتى أن صوتها ارتفع وهي ترد:

ـ ما الذي أعطاني هذا الانطباع؟ أنت! وريبيكا قالت. . وأمك! ولم يكن انطباعاً، كان إعلاناً!

ابتسم بقلق:

ـ إذا كان الأمر هكذا، فلا شك أنه إعلان يماثل ذاك الذي صدقته عن الفستان. . وهذا يدفعني لأقول لك ان كل شيء في رأسك فقط. فلا شيء أبعد عن الإمكان بقدر الزواج بيني وبين ريبيكا.

انقلب تفكيرها رأساً على عقب. . دون شك، لا يمكن أن تكون أساءت الفهم إلى هذا الحد؟

ـ لكنك اصطحبتها إلى المكسيك. .

قاطعها ساخراً:

ـ لم أصطحبها إيبرل. . لقد ذهبت إلى هناك في عمل، وقررت ريبيكا السفر في اليوم التالي لتستغل معارفي في حملة بحث عن زوج،

كما أعتقد.. على الأقل هذا ما حدث.

- ماذا تعني؟

- لقد التقت وتزوجت صاحب منجم فضة، وحيد.. إنه أكبر منها سناً وليس في صحة جيدة، لكن هل يهم هذا أمام الحب الحقيقي؟

وابتسم ساخراً ثم:

- أعتقد أنها ستجعل منه «مالك القلعة» في أواخر أيامه.. على الأقل، لديها خبرة في هذا.

تفرست إيبرل في وجهه لتعرف مشاعره الحقيقية. هل هو مدمر بسبب نبذها له مرتين؟ هل يتظاهر بعدم الاكتراث والتسلية ليخفي قلبه المحطم؟ نسيت نفسها في اهتمامها به، وسألت متسرعة:

- لكن، غرايغ عزيزي.. ألا تمانع.. أعني، كنت واثقة جداً أنك وهي..

وضع طرف إصبعه على شفتيها ليوقف كلماتها:

- لقد شككت بهذا لبعض الوقت.. وأعرف الآن أنني كنت على حق.. أوه.. لن أنكر أن ريبيكا كانت من وقت إلى آخر، تخدع نفسها في الظن أنها تريد الزواج مني.. خاصة حين تكون ضجرة ما بين علاقة حب وأخرى.. لكنها لم تأخذ الأمر على محمل الجد يوماً، أما بالنسبة لي فأنا لم أشعر نحوها أبداً سوى بإحساس الأخ الأكبر نحو شقيقته الصغيرة.

تنفست إيبرل الصعداء:

- أوه.. هكذا إذن.. إذن حين طلبت مني البقاء مع أمك وأنت غائب، لم تكن تعرف أن ريبيكا مسافرة معك؟ أعني كان يمكن أن تطلب منها البقاء بدلاً مني؟

كشر غرايغ وجهه، وقال ممازحاً:

- هذا إذا كنت على استعداد للمخاطرة بأن تنكرني أمي.. لا

إيبرل.. طلبت منك هذا لأن أمي تحبك، ولأنني أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليك.. والأهم من كل هذا لأنني أحبك.

احمر وجه إيبرل بغير ارتياح، وقالت بإجفال:

- أرجوك.. لا تمازحني في هذا.

تلاشى المرح من وجه غرايغ لكلماتها، وأخذها بلطف بين ذراعيه ليقول بصوت أجش:

- لماذا تظنين أنني أمازحك، حبيبتي إيبرل؟

تراجعت إلى الوراء لتنظر في عينيه:

- لطالما مازحتني، منذ أول يوم التقينا فيه.. فلماذا أصدقك الآن؟ لقد أصبح مات بعيداً عن طريقك الآن.. فماذا لو كان هذا مجرد مثال آخر لـ.. طريقة الرجل مع الفتاة؟

شدها إليه بقوة:

- إيبرل.. أيمكن أن تقولي صادقة إن هذا كل شيء.. تلك الأوقات التي أمضيناها معاً، في الحديقة، في منزلك، بعد العشاء تلك الليلة؟ ألا تقنعك بأن الأمر كان أكثر من هذا بكثير.

أحست إيبرل بصدق ما كان عقلها يرفض أن يصدقه.. كان عناقه حنوناً مليئاً بالحاجة.. لكنه كذلك ثري بالالتزام والحب.. حين رفعت رأسها إليه ونظرت عميقاً في عينيه، رأت فيهما اعترافاً كانت تتشوق إليه من أعماق قلبها.. فقالت بضعف:

- أوه.. غرايغ.. لماذا لم تخبرني بمشاعرك؟

ملس شعرها بيده:

- أتذكرين أول يوم التقينا.. وحذرتني أنك ستتخلين عن أي رب عمل يتجاوز حده؟ حسناً، لقد فهمت الإنذار.. وبما أنك كنت شديدة الحساسية، خشيت لو أنني قمت بحركة خاطئة فسأفقدك إلى الأبد.. كنت قلقة جداً مني.. لذا فكرت أنك لو عملت لأمي بدلاً مني،

ستهدئين من روعك قليلاً وقد تثقين بي.

بدأت إيبرل تدرك كيف بدأ كل سوء التفاهم هذا.

ـ إذن هذا ما كنت تعنيه حين قلت إنك تفضل التضور جوعاً على أن تكون رب عملي.

ضحك غرايغ باختصار:

ـ أجل.. إضافة إلى تهجمي عليك، لكن هذا أمر أسامح نفسي عليه.. فأنا لست ملاكاً على أي حال.

قالت مفكرة:

ـ أظن أن الأمور سارت مسيرة خاطئة ابتداء من هذه النقطة. إذ، بعد هذا رأيتني مع مات.. وتركتك تظن..

ـ أجل هذا صحيح، لماذا فعلت هذا حبيبتي؟

كان سؤاله حزيناً إلى درجة أحزن معه إيبرل، فصاحت:

ـ أوه.. أنا لا أعرف لماذا حتى الآن.! ظننت أنك لو اعتقدت بوجود رجل آخر.. فستتركني وشأني.

قال متجهماً:

ـ إذن كنت على حق، أنت لم تعجبي بي في البداية!

ـ لا.. بل أحببتك! أحببتك منذ اليوم الأول، لكن كان هناك ريبيكا، كما كنت أعتقد. وبدا لي أنك كنت دائماً تعبث معي.. حين استنتجت بنفسك تلك العلاقة، اعتقدت أن هذا سيساعدني على إبعادك عني.. كنت أحتاج إلى المساعدة لأقاومك.

وتلعثمت بخجل.

شدها إليه بضحكة مرحة وقبّل رأسها:

ـ إذن لولا مات لما رفضت طلب الزواج بمثل ذلك الحزم.. ولم يكن السبب أنك لا تحبينني.. أخبريني إيبرل.. هل كان ذلك الرفض بسبب ريبيكا فقط؟

ـ أجل.. أوه أجل، غرايغ. لو أنك كنت تعرف كم أردت أن أقول نعم.. لكنني ظننتك تضحي بسعادتك لأجل ليز.

تمتم بغصة في حلقه:

ـ أوه.. يا حمراء الشعر، يا مخطئة التفكير، إيبرل.. وضع ليز لم يكن السبب في اختياري ذلك الوقت بالذات.. بل كنت أنت السبب. كنت أريدك بيأس.. ومستعداً أن أحصل عليك بأي طريقة كانت، حتى ولو سرقتك من رجل آخر.

قالت بحزن:

ـ أوه غرايغ.. لقد أضعنا كثيراً من الوقت.

ـ لا تهتمي.. لن نضيع المزيد منه.. قريباً سنكون معاً وإلى الأبد.. ثلاثتنا في البداية.. ثم..

وضمها إليه مجدداً لتستسلم بين ذراعيه. نظر غرايغ من فوق كتفه إلى الحديقة خلفه.. وبصوت عميق أجش، قال:

ـ أظن أن ريبيكا كانت مخطئة بشأن المشتل.

تمتمت وهي لا تزال تتنعم بلحظات الفرح: أجل..

تابع غرايغ بصوته الكسول المريح:

ـ سوف نقسم قسم الزواج هنا قرب حديقة الورود تماماً.. حيث انتشلتك أول مرة من بين الأشواك.. وعرفت أنني وجدتك أخيراً.. وجدت حبي الشبيه بالوردة الحمراء.. والتي ستزهر مجدداً في حزيران.

* * *